مراجعات

من زمن التوهج

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

فخري كريم

العدد (1970) السنة الثامنة

الخميس (25) تشرين الثاني 2010

عبدالعزيز الدوري
ومشروعه لكتابة التاريخ العربي

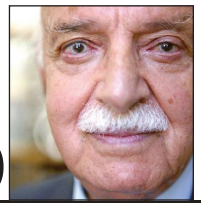

10

العلامة عبدالعزيز الدوري
ومنجزه

12

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1970)
السنة الثامنة
الخميس (25)
تشرين الثاني 2010

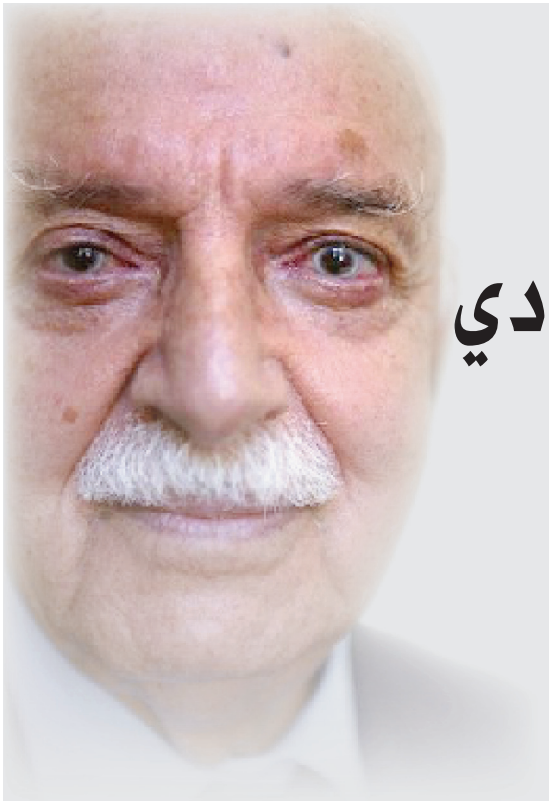

المؤرخ عبد العزيز الدوري

يكفيه كتابة تاريخ العراق الاقتصادي

رحل المؤرخ عبد العزيز الدوري (1919 - 2010)، يوم الجمعة المصادف 19 تشرين الثاني، وبرحيله يكون العِراق قد أحد رموزه الكبار في التاريخ، مِن أمثال الدوري نفسه وجواد علي (ت 1987) والقائمة تطول. "إيه أيها النهر الذي أنتجْ كل شيء، لقد نشرت الآلهة الخصب على جنباتك حين شققتك".

رشيد الخيون

بهذا الدعاء السومري استهل المؤرخ عبد العزيز الدوري أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه، من جامعة لندن ١٩٤٢ بإشراف المستشرق الروسي فلاديمير مينورسكي (ت١٩٦٦)، صاحب "حدود العالم" ودراسات إسلامية عديدة، وكتب عن ديانات ومذاهب جبال وودیان العراق. والدوري في أطروحته الموسومة "تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري"، والتي نُشرت بثلاث طبعات (بغداد ١٩٤٨، بيروت ١٩٧٤ و١٩٩٥) بدأ مؤرخاً دقيق الرواية قوي العبارة، مهندساً للبحث العلمي، ولأنه عالم، لا يشك في أعلميته، لم يتأخر من طلب ملاحظات زملائه، ووشح كتبه بالشكر لهم، زملائه الذين مثله بحثوا عن عيش خارج العراق وماتوا هناك. وما الاستهلال بالدعاء العراقي القديم إلا تأكيد انحداره من حضارة ضاربة بالقدم.

أذكر هذا لأن الدوري تجاوز المألوف فجاءت باكورة أعماله الأكاديمية ناضجة إلى هذا الحد، ولابد لأستاذه مينورسكي من دور في ذلك، وهذا لا يغيب أعماله اللاحقة وأهمها، من وجهة نظري، "بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب" و"مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي". هذا من جانب ومن جانب آخر يُعد عبد العزيز الدوري ظاهرة تلفت النظر في مجال البحث التاريخي، فأكثر من ستين عاماً، وهو يكتب بوتيرة عالية من النشاط، ثابتاً على ما بدأ به من آراء وأفكار، دقيقاً في نقله، يبث الحيوية في المادة التاريخية ليجيب على تساؤل عام "ما فائدة ما فات"؟ طالما سمعه من تلامذته، وحاول استفزازه به مدعو المعاصرة خارج إطار التاريخ.

صومعة التاريخ

عند قراءة مؤلفات عبد العزيز الدوري يشعر القارئ أنه داخل صومعة مؤرخ لا يشغله شاغل غير التاريخ، غير الماضي الممتد في الحاضر والمستقبل، دهور متشابكة الأحداث، لا يمكن عزل بعضها عن بعض بسؤال مثل: ما الفائدة من دراسة التاريخ؟ وهل كان مؤرخنا ماضويا إلى درجة أنه لا يلتفت إلى الحاضر والمستقبل إلا عبر حدث كان؟ أم هناك غرض آخر جعله يصرف أكثر من ستين عاماً ومازال باحثاً عما فات! نعم هناك مَنْ يلزم محراب التاريخ، مثله مثل البكائين على الأطلال والذكريات، كانوا مدفوعين ببؤس الحاضر وضبابية المستقبل، إلا أن التاريخ عند الدوري وسيلة لتقويم الحاضر وتجاوز ما يمكن تجاوزه من النكسات، كأحداث تعيد نفسها على مسرح الزمن، فإن صحت عبارة التاريخ يعيد نفسه، فلماذا لا تكون عودته بطريقة أخرى يتجاوز بها الأحفاد عثرات الأجداد؟

ذاكرة الأصدقاء

وجدت في ذاكرة المعماري المعروف محمد مكية مكانة خاصة لصديقه القديم عبد العزيز الدوري، ولعل سائلاً يسأل ما يجذب المعماري للمؤرخ وبالعكس، هل هو اهتمام مكية بتراث بغداد العباسي، والعمق السومري والبابلي والآشوري بالعراق، أم هو المجال الأكاديمي، بين رئيس الجامعة ورئيس القسم المعماري في كلية الهندسة؟

وما بين الرجلين اختلاف في الاهتمام والتوجه، فبالوقت الذي ظل الدوري وفياً للفكر القومي، باحثاً عن جذوره التاريخية في الاقتصاد والمجتمع العربي ظل محمد مكية متعاطفاً مع الفكر الإنساني خارج الحدود القومية، ويظهر اهتمامه هذا من تجاوز النظرة القومية لما حوله، وعندما يتحدث عن صديقه الدوري كأنه فقد فيه بدايات لمسها فيه من عهد الشباب، عبر تعاطفه مع أفكار أساتذة بريطانيين ومستشرقين آخرين، وهو يدرس بلندن، لذا يتكلم عنه دون أن ينسى استغرابه، الذي يوجزه بالعبارة "لا أدري لماذا كتب الدوري عن الشعوبية بهذه الطريقة؟ غير أن محمد مكية يعتبر الدوري وفياً لعلمه بالدرجة الأولى، وعلى حد عبارته: كان ذكياً جداً في مجاله، علماً فذاً في التاريخ، لديه قدرة على الإقناع في المواقف الحرجة، متنور وإنساني في تعامله مع الآخرين، ولم يلمس منه تعصباً مع انحيازه الكلي في بحوثه للفكر القومي.

وحينما يسرد المعماري مكية ذكرياته عن صديق أو مدينة عراقية لا ينسى مشروعه الطموح "جامعة الكوفة". فقلت له: وأنا أحاول أن أجمع مادة وافية عن عبقة من عبقات العراق، مثل عبد العزيز الدوري: ماذا كان موقف مؤرخنا من المشروع وهو رئيس جامعة بغداد يومذاك؟ قال مكية: الدوري لم يرفض لي طلباً، ويحاول بطريقة وأخرى أن يلبي طلباتي، لا محاباة للصداقة، بل لأنه يقدر دوافعي ويشعر بهمومي، لذا لم أجده ضد المشروع، الذي أعتبره البعض خطأً، مشروعاً طائفياً، لأنه يقع في منطقة شيعية ويجاور النجف الأشرف، غير أنه بطريقة ما كان يحذر من إشاعة التعليم الأهلي، ويميل إلى بقاء التعليم تحت ضوابط الدولة، وعندها ذكرته بجامعة كامبردج وغيرها من الجامعات الدولية، كيف تهيأت إلى هذه المنزلة عبر التعليم الأهلي. وأتذكر أنه طلب مني أن أتولى مهام نيابة رئاسة جامعة بغداد، رغم أني مهندس معماري، رفضت لعدم قدرتي على تولي منصب إداري، أو أن أكون تحت رئيس مع أن الدوري إن حصل وأصبحت نائباً له لا يشعرني مثل هذا الشعور. كذلك قدر اعتراضي على مقترحه في إلحاق معهد الفنون الجميلة بقسم الهندسة المعمارية.

كان مكية يجالس عبد العزيز الدوري لحظة إضرابات طلبة الجامعات (١٩٦٨)، وكان يسمع الهتاف الطائش "اعدموه للدوري"، وقد شعر مكية بقلق المؤرخ من هتاف الطلبة، فليس له علاقة إلا بانتظام الطلبة في كلياتهم، أما حالة البلد السياسية التي اعترض عليها الطلبة فليس مسؤولية رئيس الجامعة. سألت أحد الطلبة الذين شاركوا في تلك الإضرابات وعلا صوته بهذا الهتاف في فورة الشباب، وهو اليوم من المعجبين جداً بالدوري، عن مغزى الهتاف، ضحك وقال: لا أدري!

مؤسس كلية الآداب

عاد عبد العزيز الدوري إلى العراق بعد الدراسة الجامعية بمدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية (١٩٣٩-١٩٤٠) ولنبوغه المبكر في علم التاريخ رُشح لدراسة الدكتوراه في المدرسة نفسها، ليكون مدرساً بدار المعلمين العالية (١٩٤٣) وأن تسند إليه مهمة تأسيس كلية الآداب والعلوم ببغداد، وهي نواة جامعة بغداد، التي سيكون رئيسها فيما بعد. وحسب ما كتبه زميله الدكتور أحمد صالح العلي، رئيس المجمع العلمي العراقي السابق، أن الدوري فصل من الوظيفة بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، بحجة تعاطفه مع نوري السعيد، ذلك لأن الأخير كان يقدر جهوده العلمية ونشاطه الأكاديمي، ولم يستمر بعيداً عن الوظيفة غير الستة أشهر بعدها أعيد أستاذاً للتاريخ الإسلامي في كلية الآداب، التي كان يتولى عمادتها.

اختيار رئيس الجامعة

قال العلي موضحاً حيثيات تولي عالم الفيزياء عبد الجبار عبد الله (ت ١٩٦٩) بدلاً عن عبد العزيز الدوري لرئاسة جامعة بغداد، مع أن الأخير كانت له خبرة تأسيس كلية الآداب وإدارتها لسنوات: "كان القانون يقضي أن يرشح مجلس الجامعة أسماء ثلاثة تختار الجهة العليا أحدهم لرئاسة الجامعة، وقد حاز الدكتور الدوري أكثر الأصوات، وتلاه الدكتور عبد الجبار عبد الله، ثم مرشح ثالث وضع اسمه لتكميل العدد... ولكن عبد الكريم قاسم اختار عبد الجبار عبد الله للرئاسة، فتوسع التباعد بين الدوري وعبد الجبار" (مجلة الجديد في عالم الكتب والمكتبات).

وانقسم الجمهور العلمي والأكاديمي إزاء العالمين إلى يساريين مع عبد الله وقوميين مع الدوري، وظل الحال عليه حتى شباط ١٩٦٣، يومها اعتقل عبد الجبار عبد الله لأنه كان محسوباً على اليسار وعبد الكريم قاسم، ليصبح

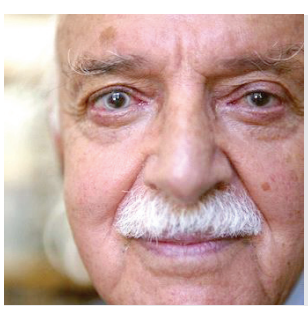

كان مكية يجالس عبد العزيز الدوري لحظة إضرابات طلبة الجامعات (1968)، وكان يسمع الهتاف الطائش "اعدموه للدوري"، وقد شعر مكية بقلق المؤرخ من هتاف الطلبة، فليس له علاقة إلا بانتظام الطلبة في كلياتهم

مؤرخنا رئيساً للجامعة لكن وسط أجواء ملبدة وحرجة جداً. وما حز بالنفس أن الدوري نفذ أمراً لقيادة انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ بفصل خيرة الأستاذة من علماء وأدباء ومؤرخين وفنانين، واحتفظ بنسخة من أمره الصادر آنذاك وبتوقيعه، عطفاً على قرار قيادة الانقلاب.

لكن لا يجب أن نحصر المؤرخ الدوري بهذا الفعل، ولا أظنه ظل منسجماً مع ما فعل، فهو الآخر وصلت النار إلى أذياله فهجر بغداد، قبل سقوط النظام بزمن طويل، ومات بعمان.

لم يترك الدوري زميله وصديقه العالم عبد الجبار عبد الله يهان وربما يصفى جسدياً، فقبل إنه سعى في إطلاق سراحه بالتنسيق مع وزير التربية أو المعارف آنذاك أحمد عبد الستار الجواري. سألت أحد المعتقلين مع عبد الجبار عبد الله حول ما حدث له، قال: أهانوه وكانوا يبصقون على وجهه، ويوماً نودي عليه لمقابلة شخص ما، فعاد بعد مغادرة ذلك الشخص مهاناً، فقلنا له: مَنْ رأيت قال: صديقي الدكتور عبد العزيز الدوري، وأنا لا أعرف منْ يكون الدوري، قلت له، هو الذي أمر بإهانتك، وعندها أصر عبد الجبار على مساعدة الدوري له، قائلاً: لا، الدوري صديقي وقدم لمساعدتي"، وفعلاً كانت النتيجة أن عبد الجبار أطلق سراحه بمساعدة الدوري، والأخير كما نعلم وإن كان قومياً لكنه لم يكن في يوم من الأيام حزبياً.

غير أن هذا التفاضل بين عالمين يخبر عن زمن جميل، يحترم العلم والعلماء إذا ما قيس ذلك بتربع شخص مثل سمير الشيخلي، ليس رئيساً لجامعة بغداد، وإنما وزيراً للتعليم العالي وقس على هذا. وإن أقيل عبد العزيز الدوري من رئاسة الجامعة من قبل عبد السلام عارف، أعاده عبد الرحمن عارف ليفصل منه بعد انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨، ويعتقل لمدة عام، ثم تضطره الظروف للهجرة.

نفائس كتبه

ليس لدينا ما يغني الحديث عن حياة المؤرخ الدوري غير الشذرات التي جمعناها من هنا وهناك، لكن المؤكد أنه جعل علم التاريخ محرابه، ومن "معجم المؤلفين"(١٨٠٠-١٩٦٩) لكوركيس عواد نسجل لمؤرخنا عناوين الكتب الآتية: "ابن خلدون والعرب"، "بحث في نشأة علم التاريخ"، "تفسير التاريخ"، "الجذور التاريخية للاشتراكية العربية"، "الجذور التاريخية للشعوبية"، "الجذور التاريخية للقومية العربية"، "دراسات في العصور العباسية المتأخرة"، "دراسات في علم التاريخ عند العرب"، "دراسات في سيرة النبي"، "ضوء جديد على الدعوة العباسية"، "العصر العباسي الأول"، "الفكر العربي في دور التجديد والتقليد"، "في الوعي العربي"، "ما ساهم به المؤرخون العرب في المئة سنة الأخيرة"، "مستقبل الفكر العربي"، "مقدمة في تاريخ صدر الإسلام"، "مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي"، "موجز تاريخ الحضارة العربية"، "نشأة علم التاريخ عند العرب"، "نشوء الأصناف والحرف في الإسلام"، "نظرات في الوعي العربي"، "نظرة إلى تاريخ صدر الإسلام"، "النُظم الإسلامية"، "الوعي القومي"، ثم صدرت له دراسة بعنوان "التكوين التاريخي للأمة العربية.. دراسة في الهوية والوعي"، إضافة إلى الكتب المشتركة والتحقيقات.

أشارت عناوين المؤرخ الدوري إلى انشغاله بثلاثة هموم، وهي: التاريخ الاقتصادي العربي، والقومية العربية، وعلم التاريخ، والثلاثة يجمعها جامع واحد هو تأصيل الفكر القومي العربي، أو حسب ما يسميه أحياناً بالعروبي. وما لا يُنسى للدوري، إذا لم أكن مخطئا، ريادته بين المفكرين في الشأن القومي، في البحث عن أصول التكوين القومي عبر التاريخ الاقتصادي. فقد فسر ظهور الحركات الاجتماعية والسياسية في الإسلام بالعامل الاقتصادي، وهذا ما ظل محتكراً للفكر الماركسي، الذي اقترب الدوري منه في بعض البحوث، عندما قال: "التفاوت الاقتصادي أدى إلى قلق اجتماعي وإلى قيام حركات اجتماعية".

الجذور الاقتصادية

نعود إلى محتويات كتابه المهم الذي يستفتح فيه دراسته للعامل الاقتصادي ودوره المؤثر في حياة الشعوب "تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري"، بعد تشخيص حدود العراق الجغرافية، تلك الحدود التي يحاول البعض اليوم إلى اعتبارها خطوطا من رمل، فالدوري نظر جيداً في صورة العراق المرسومة بيد أبي زيد البلخي، في القرن الرابع الهجري، ونظر في كتب المسعودي الذي حدد حد العراق الجغرافي من آثور إلى عبادان، وبعد مناقشات طويلة مع ما كتبه الجغرافيون، قال الدوري في حدود العراق: "إن بلاد ما بين النهرين بمنطقتيها العراق والجزيرة يحدها خط يبدأ من عبادان على الخليج العربي، ويسير شمالاً إلى جُبى (بلدة بصرية أنجبت مفكرين وفقهاء عديدين) فالطيب فحلوان ثم يتجه وجهة شمالية غربية إلى تكريت ثم السن ثم حديثة ثم الموصل ثم جزيرة ابن عمر...".

وربما أغضب الدوري في كتابه "الجذور التاريخية للشعوبية"، باحثين ومؤرخين اختلفوا معه في التوجه الفكري، لما في العبارة من استعلاء على الشعوب الأخرى، ومؤرخنا لم يصرف كثيراً من الوقت في الكتابة عن هذه الظاهرة إلا ما تطلبته الخلافات الفكرية وقتذاك، ما بين ١٩٥٨-١٩٦٣. وإذ تحدث عن الشعوبية كحركة موجهة ضد القومية العربية، حسب ما قدمه في كتابه الخاص، لم يغفل الاستبداد الأموي الذي دفع بالشعوب الأخرى أن تواجه العرب وتبحث عن مثالبهم، وربما كتاب ابن الكلبي، وهو عربي، "مثالب العرب" وكتب الأعاجم الذين كتبوا في فضائل العرب تضعنا أمام إشكالية فهم المواجهة بين العرب والموالي، الذين انتصر لهم مؤرخنا في أكثر من مكان.

قال الدوري منتصراً لغير العرب: "يلاحظ أن النظرة القبلية كانت العامل الأول فيما يبدو من تمييز أو تعال في النظر لغير العرب، وفي مقاومة تسجيلهم في الديوان وإعطائهم الأعطيات، بخلاف النظرة الإسلامية". وجوهرها الآية الكريمة "وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا". ونضيف عبارة للخليفة الأموي السابع سليمان بن عبد الملك (ت٩٩هـ) لا يُستغنى عنها بالحكم في مثل هذا الموقف، قال سليمان: "عجبت لهذه الأعاجم، ملكوا ألف سنة لم يحتاجوا إلينا ساعة واحدة في سياستهم، وملكنا مئة سنة، لم نستغن عنهم ساعة واحدة" (الزبير بن بكار، الأخبار الموفقيات).

عروبة التشيّع

وإذ جرت محاولات إعلامية لتعميم مصطلح الشعوبية وتسويقه من جديد أوان الحرب العراقية الإيرانية فإن الدوري ظل بمعزل عن هذه الميول، بل وحاول أن يرد على منْ جعل من شيعة العراق غرباء عن قوميتهم العربية ووطنهم العراق، أعلن ذلك بجرأة في ندوة "العلاقات العربية الإيرانية" التي أقامها مركز الوحدة العربية بقطر (١٩٩٥) قال: "لكن التشيع لم يميز إيران من العرب، فالتشيع بدأ عربياً، ووجد مركزه الأول في العراق" (الكتاب، ص٥٨). إن عبارة الدوري الأخيرة فيها من الاحتجاج الكثير على حملات التهجير التي طالت آلاف العائلات العراقية بذريعة التبعية الإيرانية، مع أن هذه الحالة خلقها رسمياً قانون الجنسية العراقية ١٩٢٥، الذي لم يراع ظروف الخدمة العسكرية في العهد العثماني، والاضطرار إلى الاحتماء بجنسية دولة أخرى غير الدولة العثمانية، مع أن الدولتين أجنبيتان، ولا يصح الحكم على عراقية العراقي بالجنسية التركية. وأكثر من هذا أراد الدوري بتساؤله الآتي "هل يكون المذهب صلة وسبب تعاون وبناء بين أمتين في العصر الحديث أم يتخذ سبيلاً للقطيعة والأذى؟"، أن يكون التشيع صلة وصل وعلاقات طيبة بين العراق وإيران لا أن يكون سبباً لحرب دامت ثماني سنوات، وسببت ما سببته من دمار وخراب.

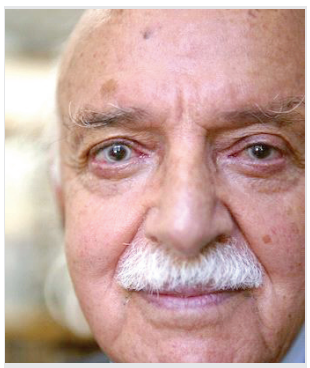

أشارت عناوين المؤرخ الدوري إلى انشغاله بثلاثة هموم، وهي: التاريخ الاقتصادي العربي، والقومية العربية، وعلم التاريخ، والثلاثة يجمعها جامع واحد هو تأصيل الفكر القومي العربي، أو حسب ما يسميه أحياناً بالعروبي.

تكامل التاريخ

نظر عبد العزيز الدوري للتاريخ زمناً متكاملاً، لذا نعت تقسيم أحداثه بالضعف، ففي عرفه ليس هناك تاريخ ثقافي واقتصادي وسياسي واجتماعي، ومن الضعف أيضاً، حسب رأيه، أن تتأثر قراءة التاريخ بالحزبية أو الشعوبية (بمعنى التعصب لشعب من الشعوب لا بمعنى الشعوبية المصطلح المعروف)، ومن الضعف أيضاً إغفال العامل الزمني والتطور الطبيعي في الحركات والتبدلات التاريخية، ومن الضعف أيضاً، وهذا هو الأهم، أن يُنسب التاريخ للأشخاص، فالعصور التي نقرأ عنها عرفت بعصر معاوية والرشيد ونبوخذنصر إلخ. وبطبيعة الحال ما تبثه الآلة الإعلامية من بغداد لا توافق هذه النظرة العلمية. والدوري سبق أن ترجم ملاحظته الأخيرة في كتابه "تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري"، وفيه أرخ للحرفي والصانع والعامة جميعاً.

لمؤرخنا رأي في عدم سريان اللغة العربية بالبلاد الإيرانية الناطقة بالفارسية، بينما سرت بسهوله في المناطق السريانية والآرامية بالعراق، أورد ذلك في كتابه "القومية العربية والإسلام"، قال: "إن العرب تركزوا في مدن أو مراكزها بجوارها، ولم ينتشروا في الريف، كما أن اللغة الفارسية القديمة استمرت لغة حياة، بل استعملت في بعض الكتابات الدينية، الزرادشتية، بعد هذا فإن اللغة الفارسية الجديدة بدأت تظهر منذ أواخر القرن الثالث الهجري لتصبح لغة ثقافة، هذا إلى وجود تراث حضاري ووعي تاريخي، مما ساعد على تقلص ظل العرب" (ص١٠٨).

والقرن الثالث هو ازدهار الدولة العباسية، التي اعتمدت بشكل خاص على خراسان، حيث بلاد فارس. ووصف تعريب العراقيين بالتعريب الهادئ، وكان لهذا الهدوء أسبابه، منها أن اللغة الفارسية كانت لغة احتلال، وثانياً هناك صلات بين العربية والسريانية والآرامية وتواجد عربي ملحوظ بالعراق قبل الإسلام ينطلق من الحيرة ودائرها.

إلى المستقبل

اعتبر الدوري دراسة التاريخ "بداية لازمة للانطلاق إلى المستقبل"، لكن مهما حاول المؤرخ، أي مؤرخ، الإفلات من الماضي لجعله وسيلة إلى حياة أفضل بعد الاستفادة من تجارب السابقين إلا أنه يظل مسكوناً بالماضي، ففيه متعته واستكمال شخصيته، فنحن لا نستطيع أن ننظر إلى صورة الدوري دون أن نستحضر بأذهاننا العصور الخوالي، وما يسر قارئ الدوري أنه أمام مؤرخ تجاوز ما يؤثر سلباً في الدراسة التاريخية. ففي كتابه "النظم الإسلامية" التي من خلال دراستها، والعبارة عبارته، تُكشف عوامل نشوء الفرق الإسلامية، والحروب الأهلية في الإسلام، وثورات الموالي والحركة الشعوبية، مؤكداً دراسة السياسة المالية ونظم الضرائب، وكل ما يتعلق بالدولة ورعاياها.

مع المؤرخين

في كتابه "بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب"، تبسط الدوري في البحث بتاريخ علم التاريخ، بداية من الإخباريين والقصاصين إلى المؤرخين، وشخص في تاريخ العلم مدرستين، المدرسة الحجازية، وهي مدرسة المدينة، المتأثرة بالنظرة الإسلامية الدينية، وبمدرسة الحديث، والمدرسة العراقية، المتأثرة بالشعور القبلي، حيث كتب الأنساب والقبائل وأيامها. وقد سجل تقييمات صائبة لكل أخباري ونسابة ومؤرخ.

فالبلاذري الذي حقق الدوري جزءا من كتبه "فتوح البلدان" نسج تاريخه "حول الأرستقراطية العربية" وكتابه عبر عن "رسالة الأمة الأساسية إلى الجهاد ويسد بعض الحاجات الفقهية والإدراية"، واليعقوبي كتب كتابه كتاريخ عام لا يخلو من ميول علوية، بينما فكر ابن قتيبة بطبقة الكتاب وحاجتهم إلى تاريخ موجز، أما الطبري، وتاريخه أشمل التواريخ إلى قبل وفاته بقليل "أراد أن يوضح مشيئة الله وأن يجعل من تاريخه دليلاً على فعاليات الأمة جنب تفسيره العظيم"، وهو أفضل مثال لمدرسة الحديث التاريخية. ولعلي لم أكن مخطئا في عدم عثوري، في كتاب مؤرخنا "بحث في نشأة..." على اسم المؤرخ والنسابة البغدادي الذي غرف منه أكثر المؤرخين، وهو محمد بن حبيب (ت٢٤٥) صاحب "المحبر" و"المنمق"، والذي غرف منه المؤرخون الكبار ومنهم البلاذري، و ربما لمؤرخنا رأي لا نعرفه.

أقول: إن الكتابة عن مؤرخ بحجم عبد العزيز الدوري لا يكفيها مقال، لذا أقف عند هذا الحد، لأختم بالقول الذي وصف فيه الدوري نفسه عندما تحدث عن صاحب المغازي "والواقدي صريح في رواياته، ومع وجود ميول علوية لديه إلا أنه بعيد عن التحزب".

والدوري صريح العبارة ومتسلسل الخبر مع وجود ميول قومية إلا أنه ظل بعيداً عن التحزب، وحزبه الذي يعنيه الآن هو علم التاريخ، فماذا يُقال لصاحب ستين عاماً وهو يصلي في محراب هذا العلم. وهو من الذين كتب لهم محمد طاهر العمري العام ١٩٢١، وهو يكتب عن مقدرات العراق السياسية: "أكتب هذا لشبان العراق الذين سيؤلفون الأدمغة المقبلة ليتشعبوا حالا واستقبالاً ما قدر الله على بلادهم من الحادثات السياسية ليتعظوا منها وينهضوا بهذه الأمة التعيسة"، وهؤلاء الذين خدموا العراق بشبابهم وكهولتهم لم يجدوا فيه موطئ قدم، وشبراً يرقدون فيه رقدتهم الأخيرة. أطال الله عمر مؤرخنا.

أختم بالقول: لا يجب أن نبقى أسرى ما ظهر ذلك اللغط السياسي والحزبي، والذي أظهر عبد العزيز الدوري قومياً ليس إلا، وتبوأ رئاسة الجامعة بعد اعتقال رئيسها عبد الجبار عبد الله، ولا يجب أن نظل أسرى ما كتبه الدوري في الشعوبية، لفورة طارئة، علينا أخذ الدوري بكامل ما انتج، والعراق أحق من غيره في الفخر بهذه القامة المديدة. فعلينا تقدير حياته وموته ساجداً في محراب التاريخ، ومجيباً عن الغامض من أسئلته، من أجل مستقبل أفضل، فلا مستقبل لمَن لا يتعظ بتاريخه

عراقيون من زمن التوهج
العدد (1970)
السنة الثامنة
الخميس (25)
تشرين الثاني 2010

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (1970)
السنة الثامنة
الخميس (25)
تشرين الثاني 2010

عبد العزيــز الـدوري

شيخ المؤرخين المتميز: شاهد البدائل الصعبة

أ.د. سيّار الجميل

" هل نريد التاريخ شدّاً الي الوراء وإعاقة للحركة ، أم نريده سبيل انطلاق الي مستقبل أفضل "؟!

(أ. د. الدوري)

كلمة عن رحيل الاستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري يوم الجمعة ١٩ نوفمبر ٢٠١٠

بكل حزن واسف يرحل عنّا الاستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري شيخ المؤرخين العرب ، وهو بعيد عن العراق ، يرحل ليلتحق بقافلة العظماء والمتميزين من المبدعين العراقيين الذين لم تتحقق امنياتهم بأن تكون نهاياتهم على تراب العراق .. دعوني اقدم لكم هذه الفصلة الدراسية من ذاكرة مؤرخ عن الراحل الكبير الذي رحل وفي نفسه غصات لا تعد ولا تحصى .. رحل ولم ير بغداد ولم يستظل بنخيلها ، ولم تتحقق امنيته بزيارة مساجدها وابنيتها .. ولم يتمش في شارع الرشيد .. ولم يستعد ذكرياته عن مبانيها الجامعية وعن ضفاف دجلة .. وان كان عبد العزيز الدوري قد رحل اليوم ، فسوف تلحق به قافلة اخرى من المبدعين المتميزين العراقيين ، وهم يتوزعون في شتات الارض .

معايشة البدائل الصعبة

كنا نسمع بأسمه منذ عقود من السنين وهو المؤرخ الذي تخرج علي يديه العشرات بل المئات من الخريجين من اجيال مختلفة . وكان الرجل قد سجل له ومنذ بواكير انطلاقاته نهجا معينا في الكتابة التاريخية تبلور من خلال اعماله ومواقفه وانشطته خصوصا في معالجاته او محاضراته وكتبه ودراساته وبحوثه التي نشرها . ولد الدكتور عبد العزيز الدوري في قلب العراق مع مضاعفات الحرب العالمية الأولي ، فكان ان تبلور تكوينه مع انبثاق تأسيس المملكة العراقية عام ١٩٢١ معاصرا عقدين زمنيين مهمين ، أي : العشرينيات والثلاثينيات ، وهما يغطيان في الحقيقة عهدي الملكين فيصل الاول ١٩٢١-١٩٣٣ وأبنه غازي الاول ١٩٣٣-١٩٣٩، وخلالهما - كما نعلم - تبلورت الفكرة القومية وغدا العراق محطة عربية لجملة واسعة وكبري من المثقفين العرب خصوصا مع بروز ونضوج الفكرة النازية والشوفيينية في العالم .

نبذة عن حياته

ولد عبد العزيز الدوري في بغداد عاصمة العراق عام ١٩١٩ ، حصل على بكالوريوس شرف في التاريخ من جامعة لندن عام ١٩٤٠ و على الدكتوراه من جامعة لندن عام ١٩٤٢ ، ثم عاد الى العراق ، فدّرس التاريخ في دار المعلمين العالية وكلية الحقوق ثم كلية الآداب و العلوم قبل قيام جامعة بغداد . عمل مؤسسا و عميدا لكلية الآداب و العلوم ، ثم رئيسا لجامعة بغداد خلال الفترة ١٩٦٣-١٩٦٨ لينتقل بعدها للتدريس في الجامعة الأردنية التي بقي فيها قرابة اربعين سنة .

وعندما انفجرت الحرب العالمية الثانية ، نجد عبد العزيز يؤهل نفسه في دراساته العليا بجامعة لندن وكان شابا ذكيا أنهي دراساته بسرعة فائقة وعاد الي وطنه ليكون أستاذا في كلية الحقوق ولم تكن جامعة بغداد قد انبثقت بعد ، فدرّس في اروقتها حتي تأسيس كلية الاداب والعلوم التي سيغدو عميدا لها قبل ان يختتم عقد الأربعينيات آخر مشاهده . ولقد سمعت انه كان يدخل قاعة المحاضرات في ذلك العقد وبعض طلبته اكبر منه سنا !! وبدأ يساهم الي جانب تخصصه في الحركة الثقافية وبدا واضحا انه يميل الي النزعة القومية ميلا صارخا في كل من محاضراته واعماله المنشورة . واستطيع ان اكشف سرا لأول مرة ، اذ روى لي اناس أثق بهم جدا في الموصل منذ زمن طويل ان الدوري عندما كان استاذا ببغداد في الخمسينيات ولم يكن قد تزوّج بعد ، أحّب احدى طالباته وكانت شابة موصلية شقراء بارعة الجمال ومن عائلة قديمة ومعروفة من الوجهاء ، اسمها (ب. ن.) .. وقد بادلته الحب نفسه وكان ان تقّدم لخطبتها ، ولكن لم تتكّلل جهودهما بالزواج ، اذ تزوجّها ابن عمها بعد ان تقّدم مسرعا اليها !! فوقفت التقاليد حجر عثرة في سبيل حبهما !! وكثيرا ما التقيت باستاذنا الدوري ولكنني كنت احجم ان أسأله عن حّبه الاول ذاك .

الصفحة السياسية: شيخ المؤرخين العرب

ولعل الخمسينيات هي اهم مرحلة في حياة الرجل اذ كانت له مساهماته الاكاديمية والسياسية أيام نهايات الحكم الملكي وصولا الي العهد الجمهوري ووقوفه أمام محكمة المهداوي شاهدا ، ولم يخلص هو الاخر من تعليقات رئي المحكمة الصاخبة .. وقد كيلت له التهم السياسية ايام حكم الزعيم عبد الكريم قاسم ١٩٥٨-١٩٦٣ ، وقد نصّب رئيسا لجامعة بغداد على عهد المشير عبد السلام عارف ١٩٦٣- ١٩٦٦. غادر العراق بعد وصول البعث إلى السلطة عام ١٩٦٨ إلي بيروت لاسباب سياسية ، وقال في ردّه على سؤال وجّه اليه حول ذلك ، بأنه لم يكن مرتاحا من قدوم البعثيين الى حكم العراق ، ثم استقر في الأردن وعاش فيها حتى اليوم أستاذا في الجامعة الأردنية وكرس جهوده العلمية والبحثية والتدريسية عربيا كما حصل علي مكانة مرموقة من أوساط ومحافل ومجامع ومعاهد عدة ، وخصوصا من لدن الأمير الحسن بن طلال ولي العهد في المملكة الأردنية الهاشمية سابقا ، كما ونال جوائز عربية متعددة نظير خدماته العلمية ، كما واستفادت من مكانته وعلمه مؤسسات علمية وبحثية متعددة ، واحتفت به مؤسسة عبد الحميد شومان قبل سنوات واطلق عليه بـ " شيخ المؤرخين العرب " .. وبرغم كل ذلك ، فالرجل لم يتخلص من جملة من الخصوم (الأكاديميين) وغير الاكاديميين ، وجلهم من الحانقين عليه لاسباب شتي سياسية وفكرية واجتماعية ..

أما خصومه من السياسيين ، فلهم مواقف مختلفة منه بسبب نزعته القومية التي جعلته يؤسس منذ سنوات طوال عن الجذور التاريخية للشعوبية والتي استفادت منها الاحزاب والجماعات القومية ضد خصومها ! وقد انتقدت استعارتها كظاهرة تاريخية قديمة واستخدامها سياسيا في العراق ! وكان للدوري دوره ومشاركاته الخصبة في عدة مؤتمرات وندوات ومناقشة اطروحات وموسوعات عربية ودولية . ومن الأهمية بمكان أن أسجل هنا بعض ما ذاع عنه وهو من ابعد الناس عن ذلك ، اذ لما كان هذا المؤرخ قد اعتني بالتاريخ الاقتصادي العربي وعالج من خلال بعض المصطلحات والأفكار ذلك ، فلقد وصفه البعض من ضيقي الأفق بالمؤرخ الماركسي ! والحقيقة ، إن الرجل أبعد ما يكون عن الماركسية والفلسفة المادية ، كما أعلن مرارا وتكرارا ، بل انه ألف كتابه (الجذور التاريخية للشعوبية) ردّا على ممارسات الشيوعيين العراقيين في تلك المرحلة التاريخية .

المؤرخ صاحب التآليف التاريخية

١) الكتابة عن الظواهر

ويكاد يكون الدوري أول مؤرخ عراقي معاصر يتخصص في تاريخ العباسيين الزاهر ويوظّف تخصصه في تأسيس تيار فكري يرسخ من خلاله أهمية العصور العباسية ودراستها في العراق باعتباره مهدا مركزيا للعديد من الدول والدويلات الاسلامية واخطرها سياسيا وحضاريا علي وجه الإطلاق في تاريخنا الإسلامي .. لعل أهم ما تميز به الأستاذ المؤرخ الدوري منذ بواكيره : اهتمامه ببعض الظواهر التاريخية في تاريخنا العربي الإسلامي بدءا بالشعوبية التي كرس لها من جهوده وصولا الي القومية التي عالج تاريخها في تكوين الامة العربية ، فضلا عن الظاهرة الحضارية في حياة العرب والمسلمين . وأصدر الدوري مؤلفات عدة وله عشرات المقالات والبحوث المنشورة.

٢) رؤية جديدة للتاريخ العربي الاسلامي

استطاع الدوري في مؤلفاته التاريخية أن يقدم صورة جديدة للتاريخ العربي الإسلامي عن طريق دمجه لأصالة البحث التاريخي في مؤلفات المؤرخين العرب القدماء مع أدوات التحليل و البحث التي استقاها من الغرب . واستطاع الدوري في مرحلة مبكرة جدا ، تحديدا عام ١٩٤٥ أن يقدم لنا كتاب (مقدمة في تاريخ صدر الإسلام) و هي رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي جمع فيها رؤيته للعوامل المختلفة التي أسهمت في تطور التاريخ الإسلامي و الذي يحددها بعوامل عقدية إيمانية و عوامل قبلية عصبية و عوامل

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1970)
السنة الثامنة
الخميس (25)
تشرين الثاني 2010

إقتصادية ، و بهذا جمع الدوري برؤية المسلم العربي مجمل العوامل الأساسية المؤثرة في التاريخ دون تحيز لنظرية معينة تضع أحد هذه العوامل أولا فلم يعلي من شأن الإيمان مهملا الاقتصاد و لم يهمل العصبية ليركز على الاقتصاد .

٤) اشهر المؤلفات التاريخية :

طبق الدوري كل ذلك على مرويات التاريخ الإسلامي الوفيرة ليضع صورة أكثر وضوحا لأزمات التاريخ الإسلامي مثل فتنة مقتل عثمان و مشاكل العراق الاقتصادية في تلك الفترة و نزاعات الخلافة بين علي بن أبي طالب و معاوية بن أبي سفيان . كان كتابه الآخر (مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي) احد الكتب الأولي و ما زالت أحد الكتب النادرة التي تتحدث عن مراحل تطور الاقتصاد في بدايات الدولة الاسلامية .

ومن اشهر مؤلفاته : نشأة علم التاريخ عند العرب / مقدمة في تاريخ صدر الإسلام / مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي / بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب / العصر العباسي الأول : دراسة في التاريخ السياسي و الإداري و المالي / الجذور التاريخية للشعوبية / التكوين التاريخي للأمة العربية : دراسة في الهوية و الوعي / ابن خلدون والعرب : مفهوم الأمة العربية (في الفكر الاجتماعي الخلدوني : المنهج والمفاهيم والأزمة المعرفية) / العصر العباسي الأول دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي / دراسات في العصور العباسية المتأخرة / أنساب الأشراف / البلاذري (٢٧٩هـ) ؛ تحقيق رفقة بعض الباحثين .. وهناك تآليف اخرى له .

الدوري في رأي المستشرقين : برنارد لويس مثالا

أول ما عرفناه كنا طلبة علي مقاعد الدراسة .. لم يدرّسني الرجل ، بل كنا نقتني كتبه لتكون لنا مرجعا ومعينا في دراستنا وبحوثنا . لقد لفت نظرنا مطولا إلي منهجه الدقيق المميز ، فهو يعالج أي قضية وأي إشكالية بدقة متناهية معتمدا في ذلك علي المعلومات التاريخية لا علي وجهات النظر العادية .. ثم يبرع في تحليلها بشكل مركز ، ومن ميزاته : توثيقاته التي لا يكل ولا يمل منها حتي في أعماله الأخيرة . جاء ذكر الدوري مرة من المرات أمام المستشرق برنارد لويس وكنا طلبة في بريطانيا وكان لويس يشارك في مائدة علمية مستديرة وكان في معيتي كل من زملائي وهم : ايان ماكلينان وصوفيا برنادوت وكلف هيجارد الذين كنت برفقتهم (مايو ١٩٨١) في كيمبردج .. قال لويس بأن الدوري يزيد اليوم كثيرا من توثيقاته من دون حاجة .. ان المؤرخ بعد ان يبلغ مكانته يصبح هو نفسه وثيقة يعتمد الناس عليها ، فلا حاجة الي أن يكسب ثقة قرائه ، فآخذت الإذن معقبا عليه : لقد تعلمّنا من تاريخنا بأن نؤدي الأمانات إلي أهلها .. فزاغ بصره ورمقني بنظرة حادة ، علما بأن احتراما متبادلا يكنه . والحق يقال . كل المستشرقين الذين صادفتهم في حياتي للاستاذ الدوري . واعتمد عليه جيل المستشرقين البريطانيين في منتصف القرن العشرين ومنهم برنارد لويس وهولت وسارجنت وغيرهم في كتابة عدة مقالات علمية في دائرة المعارف الاسلامية في طبعتها الثانية التي صدرت تباعا على امتداد ثلاثين سنة من القرن العشرين . وكان الدوري يرشح البعض من المؤرخين العرب لكتابة مقالات للانسكلوبيديات ، كنت احدهم . وفي مرة اخرى ، وقبل سنوات طوال ، كلفّني مرة باعداد مقالات لعناوين انسكلوبيدية نسيت الى اي جهة كانت

تجربتي مع الرجل:

لقد كان لي أول لقاء مع الأستاذ الدوري في بهو كلية الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن صيف عام ١٩٧٦ ، إذ سألني عما سأتخصص بشأنه فأعلمته انني اعمل على التاريخ الحديث للشرق الاوسط ، وكانت لنا محادثة من نوع خاص حول الاستشراق وتاريخ العثمانيين وموقف العرب منه .. وافترقنا ولم نجتمع ثانية الا بعد سنوات طوال وقد وجدته ليس كما كان سابقا سريع الحركة وقد ترك تدخين غليونه الشهير . وكان لقاء رائعا للمرة الثانية فيه عتب خفي استدركته مباشرة بابتسامة بريئة ، اذ قال في معرض حديثه بأنه فعلا قد تجاهل مرحلة تاريخية طويلة في دراسة تكويناتنا العربية للقرون الأربعة الأخيرة قبل القرن العشرين ايام حكم العثمانيين .. ، أجبته قائلا ومتسائلا : هل كنت مصيبا ام كنت علي خطأ ؟ فابتسم وقال بنبرته المتسامحة : الحق معك يا سيار . ولابد لي ان أوضح ذلك إنني في الفصل الأول من كتابي " العثمانيون وتكوين العرب الحديث " قد انتقدت الدوري في كتابه المعروف " التكوين التاريخي للامة العربية " لأنه تجاهل دراسة المرحلة العثمانية من تاريخنا الحديث ، وارجعت ذلك الي عدم اهتمام المؤرخين المتخصصين الأوائل بهذه المرحلة .

حفل جائزة شومان

توثقت علاقتنا وكان الرجل يعزّني ويقدرني اسوة بكل الزملاء الآخرين من شتي الأجيال ، وكان قد حضر حفل منحي جائزة شومان للعلوم الإنسانية في الأردن عام ١٩٩٢ ، ودعاني إلي حفل غداء بمعية الاساتذة الدكاترة : ناصر الدين الأسد وعبد الكريم غرايبه وعلي

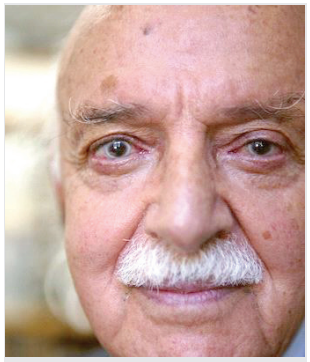

لقد كان لي أول لقاء مع الأستاذ الدوري في بهو كلية الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن صيف عام 1976 ، إذ سألني عما سأتخصص بشأنه فأعلمته انني اعمل على التاريخ الحديث للشرق الاوسط ، وكانت لنا محادثة من نوع خاص حول الاستشراق وتاريخ العثمانيين وموقف العرب منه

محافظه وأسعد عبد الرحمن .. وغدوت أزوره بشكل خاص في مكتبه بالجامعة الأردنية الذي كان يزدحم بالكتب والأوراق من كل صوب وجانب .. وثمة التفاتة عربية أصيلة عند الرجل يعرفها كل من عرفه عن قرب ، اذ لا يمكن أن يدخل أي ضيف إن لم يقم بنفسه ويطلب له ما يشربه في ضيافته . اشتركت معه في عدة ندوات ومؤتمرات ولعل ما يميزه في كتاباته الدقة والتركيز وفي محاضراته التحليل ومعرفة الأسباب والعلل والخروج باستنتاجات غاية في العلمية .. ناهيكم عن أمانته وموضوعيته وحياديته . وبقدر ما يبدي من التواضع أمام زملائه ويسمع لهم ، الا انه سيد مادته في محاضراته أمام طلبته وطالباته ، اذ انهم يجمعون بأنهم يخشون سلطته عليهم وعدم نسيانه ما يكلفهم به من أعمال .. مع عطف شديد علي مستقبلهم .

بعض الأدوار : التخلي والتجلي

١) الموقف من ظاهرة تاريخية اسمها " الشعوبية " :

كان أمامنا جميعا في واحد من المؤتمرات المهمة عن العلاقات العربية . الايرانية التي عقدها مركز دراسات الوحدة العربية بالاتفاق مع جامعة قطر بالدوحة وقد حضر ذلك المؤتمر الدولي عدة شخصيات علمية وسياسية واعلامية من كل من ايران والبلاد العربية .. كان المؤتمر يدور حول موضوع غاية في التعقيد والحساسية وخصوصا في رسم آفاق المستقبل بين عالمين جغرافيين متجاورين .. كان ذلك عام ١٩٩٥ وبدأ عبد العزيز الدوري أول محاضرة له في المؤتمر متحاشيا الي حد كبير ما كانت له من مواقف حول " الشعوبية " لأسباب فتح صفحة تاريخية جديدة في عصر جديد ، ولكنه لم ينج أبدا من بعض المشاركين العرب لا غيرهم . اذ بدا واضحا ان ثمة مواقف مضادة منه ، وقد كان الرجل سمحا ومتقبلا للآراء بشكل مرن جدا ، وقد أحسست . مع نفسي . وكأن الرجل قد تراجع عن العديد من آرائه القديمة بعد كل ما جري من متغيرات في الثلاثين سنة الأخيرة !! ولكنه من طرف آخر لم يتخل أبدا عن نزعته القومية العربية الاصيلة وهويته الحضارية الاسلامية التي لم تزل جميعها مغروسة في أعماقه وهي تظهر واضحة تمام الوضوح في كتاباته ومنشوراته وحتي بحوثه ومواقفه وآرائه وأفكاره . لقد حدّثني لاحقا في الاردن ، بأن كتابه " الجذور التاريخية للشعوبية " كان قد ولد في مناخ تلك الايام ، وكانت الشيوعية قد جعلت من نفسها عدوا لدودا للعروبة ، وكان يتمثل ذلك الموقف حفنة من الناس قصدتهم في شعوبيتهم ، ولم اقصد اتباع اي مذهب ولا اي ثقافة معينة من العراقيين ، ولكن اسيئ فهم الكتاب ومضمونه ! وفعلا ، فان هناك من العراقيين لم يزل يرفض الدوري بسبب موقفه من الشعوبية والشعوبيين .. واعتقد جازما ان الاستاذ الدوري والاستاذ الراحل الدكتور عبد الرحمن البزاز (رئيس الوزراء الاسبق) لم يقصدان البتة الا اولئك الذين كانوا وما زالوا يحقدون على العرب والعروبة حقدا دفينا .. وقد فضحتهم الايام الاخيرة من خلال مواقفهم الممالئة لايران ، وهم قلة لا تستوي وملايين العراقيين الاصلاء الذين يعتزون بأرومتهم ويتفاخرون بعروبتهم ويتماهون مع حضارتهم مهما كانت دياناتهم او مذاهبهم .. ان الشعوبية ظاهرة تاريخية مقيتة ولا يمكن نكرانها ، بل ينبغي اعادة دراستها من جديد على ضوء ما استجد من احوال ، وما طرأ عليها من اضافات في ظل المتغيرات التاريخية الصعبة التي اصابت العراق .

٢) رد الدوري بنفسه على منتقديه

وعن كتابه (الجذور التاريخية للشعوبية) يقول الاستاذ الدوري في حديثه لقناة الجزيرة مساء يوم ١٠ / ٢ / ٢٠٠٧ لمقدّم البرنامج : " هذا كتاب كتب في ظروف كان في جماعات كثيرة تدعي أنها تنتمي لحزب سياسي يعني حين كان حزب شيوعي وهم بعيدون عن هذا ناس متمولين و تجار ومترفين وإلى آخره وهذا كان وسيلة الهجوم على كل شيء اسمه عربي على الثقافة العربية على اللغة العربية، هذا كان في الماضي وتمثل أحيانا بعض الفترات ولا علاقة له يعني بعقائد الناس، أنت تؤمن ورأيك أن العرب مثلا أمة لم تعمل لم تفعل لم كذا وتعلن رأيك هذا شيء طبيعي، لكن أن تتظاهر بأنك مع العروبة ومع هذه المفاهيم وتعمل ضدها تماما بنفس الوقت هنا يدخل عنصر الشعوبية وأسيء الحقيقة أسيء استعمال هذا الكتاب ونُسب وحاول البعض أن يدعي أن هذا يخص مذهب معين.. " . ويستطرد قائلا : " والكتاب بعيد كل البعد عن هذا.. هذا لم يخطر ببالي وليس هو موضوع الكتاب وإنما أنا أتكلم عن ناس جماعات فئات انتهازية تتظاهر بالعروبة وتتظاهر بالحرص على الإسلام وتعمل ضد ذلك هذا اللي كان قسم من هذا الكتاب وحينما ظهر كل الناس أدركت هذا ولا أحد بعدين صارت تُستغل الكتاب لأغراض أخرى وأنا خارج العراق.. " .

٣) الكتاب المرجع لتاريخ الامة العربية:

أما القضية الأخري التي اشتركت فيها معه ، فهو تكليفه من قبل منظمة الاليكسو بتحرير مشروع : " الكتاب المرجع لتاريخ الأمة العربية " . ويشهد الله ان الرجل قد عمل جاهدا من اجل إنجازه برغم كل الملابسات والصعوبات ، ولكن المشروع تعّثر لاسباب شتي . اذكر انه كلفني بتقويم بعض البحوث المشاركة وأطلعني علي مشاكل لا حصر او عدّ لها !! ولما التقيت بالرجل بعد سنوات ، قلت له : أخشي علي المشروع من الفشل ، لأن أي مشروع موسوعي بحاجة قبل كل شيء الي سلطة معرفية من قبل المحرر العام يرسم لكل مشارك خطة منهجية في الكتابة والمشاركة ، فأي بحوث موسوعية لابد أن تكون علي أقصي درجات الاختزال والمعرفة

.. كل ذلك لم يتحقق ، وقد سمعت بأن منظمة الالكسو قد سحبت المشروع من الاستاذ الدوري ، وكلفت لجنة من اجل تحريره قبل سنين ، ولا ادري ما حل بهذا المشروع العربي متمنيا ان لا يموت هكذا مشروع تحتاجه أجيالنا العربية اليوم . لقد كلفني الرجل بتقييم وتصويب العديد من البحوث نظرا للثقة العلمية التي اولاني اياها ، ولقد تعبت جدا في تهذيب العديد من تلك " البحوث " التي كتبها زملاء من المؤرخين العرب ، اذ قدّم بعضهم بحثا ضاربا عرض الحائط كل المنهج المتبع من كل النواحي ، وطلب مني الدوري ان اختصر ذلك " البحث " من ١٩٠ صفحة الى ٣٠ ، فكان عملا متعبا جدا .. ولما سألت عن سبب طول البحث ، قيل لي ان الاخ الباحث وهو من بلد عربي بعيد ظن ان كل ورقة زيادة يتقاضى عليها (٢٠) دولارا زيادة!!

٤) تقويم الاداء وتطوير الدراسات العليا

أما المسألة الأخري التي أود تسجيلها هنا ، فهي تخص ورقته الممتازة التي قدمها في إحدي الملتقيات الأكاديمية في الاردن وفي احدى قاعات الجامعة الاردنية عام ١٩٩٨ ، والتي تخص تقويم الأداء وتطوير الدراسات العليا في العلوم التاريخية ، وكنت مشاركا في جلستها الصباحية ولعل ابرع ما قدم فيها من قبل الدكتور الدوري ، ولكن لم يستمع احد اليه والى مقترحاته العلمية الصائبة .. وكنت قد نشرت مقالة ساخرة عن تلك الندوة المضحكة ، اذ لم يلتفت المشاركون إلي الورقة القيمة للأستاذ الدوري ولا الى آرائه ، وراح بعض المغالين من المتطرفين الأغبياء ينتقد أولئك الذين يحملون مناهج المستشرقين ، وقام آخر ليحّرم علي الدارسين من الطلاب العرب دراستهم للإنكليزية باعتبارها لغة الكافرين !! كان المؤرخ الاستاذ عبد الكريم غرايبه يستمع وهو يضرب كفًا بكف . خرجنا مسرعين ولم يستفد أحد شيئا من ندوة قوامها ثلة من السفهاء والجاهلين الذين شاءت الاقدار وحملوا شهادات عليا في علم التاريخ !

٥) ورقة الاسكندرية للاصلاح

كم وددنا في منتدى الاصلاح العربي ان يكون الاستاذ الدوري مشاركا ، ولكن المنتدى تلّقى رسالة منه يعبر فيها عن تقديره للجهود الطيبة والفعالة التي قامت بها مكتبة الإسكندرية في تنفيذ ما طلبه مؤتمر الإصلاح، وخاصة إنشاء منتدى الإصلاح العربي، ويؤكد الدكتور الدوري أنه قام في الأردن بتعريف بعض مؤسسات المجتمع المدني وبعض المعنيين بقضايا الإصلاح بوثيقة الإسكندرية. كما يؤكد أيضا تأييده لكل الجهود المبذولة في سبيل الإصلاح العربي، كما يبدي رغبته في أن يستطيع المساهمة في هذه الجهود

عبد العزيز الدوري: إنساناً ومفكراً

اولا : حاجتنا الى دراسة تجربته :

ان ثقافتنا العربية الحديثة بحاجة ماسة الى دراسة نتاج المؤرخ والمفكر عبد العزيز الدوري ، نظرا لقيمتها العلمية ومكانتها الفكرية ، وتقديرا لجهوده المميزة في كتابة التاريخ ورفد الحركة الثقافية بكتب مرجعية معتمدة ، فضلا عن دور الرجل في تأهيل عدد كبير جدا من الدارسين والباحثين والمؤرخين والمدرسين في كل من العراق والاردن ، ولدوره في ارساء قواعد الفكرة العربية ودراسة التاريخ العربي في ازهى حلقاته وعصوره .. فضلا عن دوره الذي يمثل جانبا رئيسيا من جوانب النهضة الفكرية والثقافية في الحياة العربية ، ولانه من اوائل المفكرين العرب المحدثين في هذا العصر الذين تجاوزوا بما قدموه من اسهام في الفكر والتاريخ حدود منطقتنا العربية الى ارجاء اخرى من العالم.

ثانيا : التفسير القومي للتاريخ

لقد كانت حياة الرجل منتجة لا تتوقف ولم تنضب منذ بدايتها حتى يومنا هذا وتمثلت في انجازه الاكاديمي الغزير، فقد وضع عشرات الكتب والبحوث والتحقيقات في حقول التاريخ المختلفة، ومن ثم اهتمامه بنقد المصادر وعدم الاعتماد على القراءة السردية للمراجع التاريخية، بل النظرة النقدية والتعليلية في كل ما يقرأ، كما كانت له سماته في التركيز على تاريخ الناس وتتبع طرق حياتهم وتحليل تنظيماتهم، وآخرها اهتمامه بالفكرة القومية العربية والعناية بها من خلال البحث عن جذورها التاريخية ومكوناتها، يحركه في ذلك التزامه العميق بثوابت الامة الحضارية التي دافع عنها دفاعا مستميتا ، وخص كل ابرز التحديات التي واجهتنا على امتداد التاريخ العربي الاسلامي . ويصر الرجل على ان تاريخنا لم يكن عربيا لوحده ، بل كان عربيا اسلاميا تمتع بنشاط وفاعلية كبرى مقارنة بتواريخ امم اخرى .

٣) سجايا عبد العزيز الدوري

اما عبد العزيز الدوري انسانا ، فلقد كتب زميله وصديقه القديم المؤرخ الراحل صالح احمد العلي عن الدكتور الدوري في سجاياه الاصليه وعمله ، وعّده واحدا من ابرز من انجبه العراق في القرن العشرين اذ اشتهر بدفء علاقاته وطيب صداقته وحسن استقباله وكرم ضيافته .. كما كان انسانا نشيطا ودؤوبا يتميز بدقته وامانته وخصاله العلمية الرائعة . كان انسانا له مشاعره المرهفة وله قوة في معتقده وتفقده للاخرين .. ومن حسن سجاياه محبة كل معارفه وطلبته له . كما انه احب وطنه العراق حبا جما ، ولم يمض اي يوم من حياته ان لم يذكره بدجلة والفرات ومدينته بغداد ..

٤) سمات مؤرخ حقيقي

اما اعماله ، فلقد اعيدت طباعتها مرات ومرات وقد تميزت جميعها بمنهجه الخاص ومساهمته هو نفسه في تفسير الاحداث والوقائع ونقد النصوص ودرايته في نشأة وتطور علم التاريخ عند العرب .. وهو استاذ حقيقي اشتمل على حقيقتين : تواضعه كأنسان وصلابته كمعلم .. حدثني العديد من طلبته وطلابه عنه انه شديد المراس عليهم من اجل تعليمهم الطريق السوي والامانة العلمية والقدرة على قراءة الاحداث وتحليل الوقائع وتقييم الشخوص . وهو لا يتحمّل طلبته الاغبياء ، فينفعل من هفواتهم وسقطاتهم وسوء تصرفاتهم نتيجة جهلهم وبلادتهم ! ولقد اكد ان كتابة التاريخ لا يمكن ان تكون خارج سياق تيارات الحاضر وهمومه، وهذا يصدق على التواريخ الاسلامية وكتابة التاريخ الحديث، فتلميذ التاريخ ابن بيئته في الاساس ينطلق من الماضي الى الحاضر وبالعكس، ويختار موضوعاته ويفسر مشاكله بمفاهيم عصره.

اللقاء الاخير : الاردن 2007

أليت ان لا تفوت فرصة زيارتي للعاصمة الاردنية عمّان ، ومشاركتي في المؤتمر التأسيسي للمجلس العراقي للثقافة بتاريخ ١٤- ١٧ مايو / أيار ٢٠٠٧ من دون ان ازور استاذنا الدوري الذي استقبلني في مكتبه بالجامعة الاردنية على الساعة العاشرة من صباح يوم ١٧ مايو ، وبقيت بضيافته اكثر من ساعتين .. وجدته على نفس قوامه ولكن الشيخوخة قد اخذت منه مأخذها .. لأول مرة اجده وقد عاد الى غليونه وفاتني ونحن في خضم الحديث ان أسأله عنه .. تحدّثنا عن العراق وتمزقاته واوضاعه المأساوية ومستقبله ومستقبل عروبته والجنايات التي ارتكبت بحق شعبه .. وجدت الرجل مؤمنا ايمانا صادقا بمقاومة الشعب العراقي للغزاة وقد سألني عن حوادث مأساوية في تاريخه الحديث .. ثم انتقلنا الى دور ايران واختراقاتها ، ثم انتقلنا الى الحرب الطائفية التي يشعلها الطائفيون في العراق ومسئولية الاحتلال الامريكي عن كل اوضاع العراق الصعبة . رحنا نحلل ونقارن واتفقنا بأن لم تمر فترة على العراق كمثل هذه الفترة ، ولم يمر العراق في وضع مثل هذا في أي فترة سابقة، وكان العراقيون عبر تاريخهم دوما في تآلف ليس فقط تآلف اجتماعي تآلف اقتصادي تآلف سياسي.. ولم يتصادم العراقيون على أساس مذهبي يعني لم يكن هناك اي حرب اهلية طائفية ..

لقد قام الدوري بفحص كل الفترات بما فيه الفترة البويهية.. حتى الحياة الاقتصادية كانت كأنما نسيج متآلف كل فئة عندها اهتماماتها دون تضارب بالمصالح فيما بينهم، ومن السهل علينا أن نلاحظ عوامل التمزق لم تكن ظاهرة أمامنا لكن عوامل الشد والتماسك هذه لابد ان نستقريها من دراسة التاريخ . والمؤرخ ممكن يبصر الآخرين بالأوضاع التي يعايشونها ، وايضا بالظروف التي أدت أليها ، فمن الممكن ان تعطي مؤشرات للمستقبل إذا أستطاع أن يرى مؤشرات.. يعني أي شخص من أصحاب القلم هذا دوره وهذا يصدق على الأديب ويصدق على الآخرين من الفئات المثقفة.

انتقلنا الى تأسيس المجلس العراقي للثقافة ، فبارك خطوة تأسيسه من اجل رفد الثقافة العراقية بما تحتاجه اليوم .. وقد اعلمته بأنني اقترحت على المجلس تكريم الاستاذ الدوري نظرا لقيمته العلمية والحضارية في حياتنا العراقية المعاصرة وجهودة المتنوعة على امتداد حياته .. فشكرني . دعاني للغداء معه ، فاعتذرت وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة ظهرا ، فقمت مودعا اياه .

وأخيرا

وآخر ما يمكنني قوله في نهاية رحلة هذا الرجل الرائع ان يرحمه الله رحمة واسعة ، ويسكنه فسيح جنانه ويلهم ذويه واصدقائه الصبر الجميل ، وان يكون نتاجه العلمي ومنهجه التاريخي وأفكاره الحية معلما علي الطريق أمام الأجيال القادمة .

لقد كان حقا عالما فاضلا وانسانا خلوقا وعراقيا صادقا .. ومن المحزن انه يرحل وهو بعيد عن ارض العراق ، وقد لحق بالقافلة من رموز العراق العظام الذين لم يجدوا فرحتهم برؤية العراق عند نهاياتهم ، وقد رحلوا ودفنوا في غير العراق .

(فصلة مضافة من كتاب الدكتور سيّار الجميل : زعماء ومثقفون : ذاكرة مؤرخ)

لقد كانت حياة الرجل منتجة لا تتوقف ولم تنضب منذ بدايتها حتى يومنا هذا وتمثلت في انجازه الاكاديمي الغزير، فقد وضع عشرات الكتب والبحوث والتحقيقات في حقول التاريخ المختلفة، ومن ثّم اهتمامه بنقد المصادر وعدم الاعتماد على القراءة السردية للمراجع التاريخية

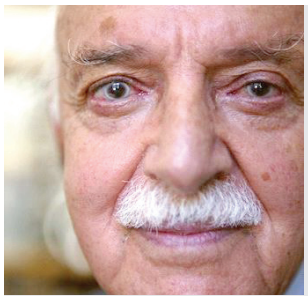

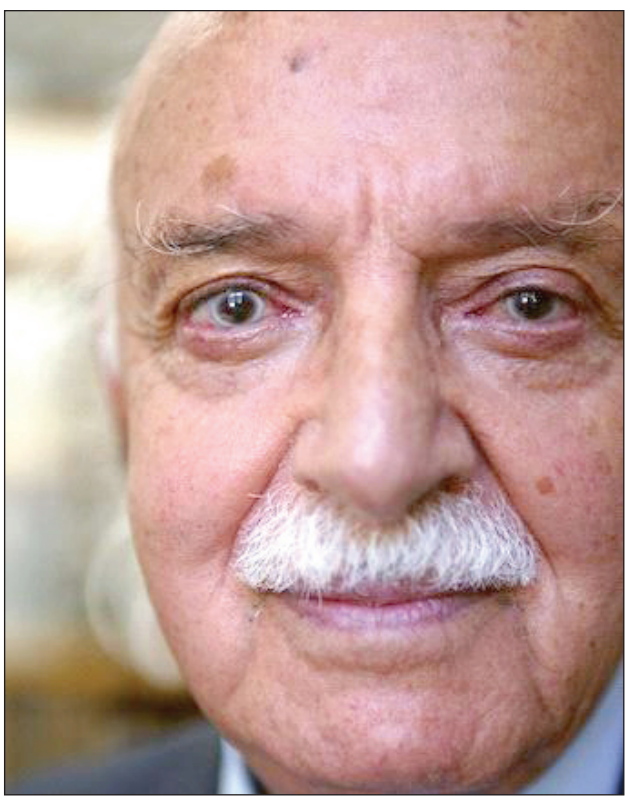

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1970)
السنة الثامنة
الخميس (25)
تشرين الثاني 2010

عبدالعزيز الدوري ومشروعه لكتابة التاريخ العربي

رضوان السيّد

يورد أستاذنا الدكتور عبدالعزيز الدوري في كتابه: "التكوين التاريخي للأمة العربية، دراسة في الهوية والوعي" نصاً عجيباً بطله بطريق بيزنطيّ، تحدث الى محاوريه العرب في خمسينات أو ستينات القرن الهجري الأول بلسان عربي مُبين، وعندما سألوه عن علّة ذلك، أجاب بأنه نشأ بين العرب فأتقن لغتهم، لكن عجب محدّثيه لم ينقض، فهم يعرفون أن عرب الشام والعراق بينهم مسيحيون كثيرون لكنهم عرب عرقاً إذا صح التعبير، والعربية لسانهم الأم؛ لكن هذا الرجل الأشقر أو الأصفر بتعبيرهم هو روميّ العِرق، ومع ذلك فإنه يتحدث العربية كأبنائها، فما هي الهوية، وما هو الانتماء؟ هل أنت أيها الرجل عربي؟ وأجاب: بل أنا روميّ! هل أنت إذن روميّ متعرّب؟ وقال مرة أخرى ضاحكاً: بل أنا روميّ نشأت بين العرب فتعلمت لغتهم! كيف تتكون الهوية إذن، وما هو الانتماء؟ الانتماء وعي إذن، وليس عرقاً أو ديناً أو حتى لساناً، الانتماء وعي وإرادة أو العكس، وإن تكن الأمور الأخرى شروطاً مكمّلة وليست صانعة. وحقبة الستينات من القرن الماضي، هي الزمن الذي انشغل فيه الأستاذ الدوري بمسألة الوعي العربي في التاريخ العربي، فتحددت المعالم الرئيسية لمشروعه في كتابة التاريخ القومي للعرب، وتاريخ الهوية والوعي والانتماء العربي، وكيف عبّر عن نفسه بالكتابة التاريخية. ففي الستينات كتب الأستاذ الدوري: الجذور التاريخية للقومية العربية، والجذور التاريخية للشعوبية، ودراسة في سيرة النبي ومؤلّفها ابن إسحاق (١٩٦٥)، وبحث في نشأة علم التاريخ عند العرب.. وصولاً الى كتابه الشهير عن التكوين التاريخي للأمة العربية في الثمانينات من القرن الماضي.

وانطلاقاً من مقولة تمحور عمل عبدالعزيز الدوري العلمي حول الوعي العربي والانتماء العربي، وكيف تجليا في التاريخ، أود هنا تقديم عرض موجز لفكره التاريخي أو مشروعه التاريخي من خلال أربع نقاط أو علائق: الانتماء العربي في علاقته بالإسلام، والوعي العربي في علاقته بالدولة، والوعي العربي في علاقته بالكتابة التاريخية، والوعي العربي في علائقه بالعالم قديماً وحديثاً.

في المجال الأول، مجال العلائق بين الانتماءين العربي والإسلامي، يبدو الأستاذ الدوري شديد الحيرة، ومنذ كتابه الأول الذي نعرفه: دراسات في العصور العباسية المتأخّرة (١٩٤٥). إذ يصل أحياناً الى المماهاة بين الانتماءين بحيث يبدو الإسلام في الوعي على الأقل بمثابة الدين القومي للعرب، وإلى التمايز شبه التام بين الوجودين أو الوعيين أو الانتماءَين. التماهي متحقّق في زمن النبي، وصدر الإسلام والعصر الأموي والعصرين العباسيين الأول والثاني . والتمايز المتنامي في العصور المتأخرة بعد القرن الخامس الهجري، وفي الأزمة الحديثة. ثم يعود الأمر لديه الى شيء من التوازن المتوتّر أو الهادئ فيقول بالتداخل والتمازج والتواشج. وخير مثال على مقولة التماهي كتابه: مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، والعصر العباسي الأول. وخير مثال على التمايز النسبي أو الكبير كتبه: الجذور التاريخية للقومية العربية، والجذور التاريخية للشعوبية، ومقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي.

في حين يعود التوازن والتداخل دون التماهي أو الذوبان في كتابه: التكوين التاريخي للأمة العربية. لكنه في الحالات الثلاث جميعاً يظل موقناً بثبات الوعي العربي أو تناميه أو استقراره، وروائز أو أشائر ذاك الوعي المتواصل عبر التاريخ تبدو ثلاثة أشكال: من خلال اللسان العربي وانتشاره، ومن خلال الدولة واستمرارها أو امتدادها، ومن خلال الكتابة التاريخية.

ثانياً: ويبدو الوعي العربي في العلاقة بالدولة شديد الوضوح عنده. فالدولة التي قامت في زمن النبي بالمدينة (=كتاب المدينة) دولة عربية، وليس لأن لسانها عربي، وحكامها عرب، وجنودها عرب، ودواوينها تعرّبت وحسب؛ بل ولأن نظرية الخلافة وممارساتها تستند الى تقاليد عربية عريقة، ووعي عربي عميق. والواقع أن معظم بحوث الأستاذ الدوري دارت حول الدولة العربية أو الخلافة العربية بالذات، وباعتبارها أهم تجليات وإنجازات الوعي العربي والإرادة العربية:

ففي كتابه: النظم الإسلامية، وهو من أول الكتب في الموضوع، هناك تركيز على المؤسسات والأنظمة التي أنشأها العرب، وصارت على مدى مئات عدة من السنين هي العمود الفقري للدولة في عالم الإسلام. لقد داخلتها تأثيرات فارسية وبيزنطية طبعاً، لكن طبائعها الأولى أو التأسيسية لم تتغير حتى انهدمت الخلافة نفسها، دون أن يسقط الوعي العربي بالانتماء المتمايز.

وفي دراساته على مدى خمسين عاماً لاقتصاديات الدولة الإسلامية، هناك معلمان بارزان للمتغيرات الاقتصادية: الاقتصاد القائم على الخراج أولاً، ثم الاقتصاد القائم على الإقطاع. والنظم والمديات والممارسات التجارية في المرحلتين. والخراج نظام يكاد يكون عربياً وحسب في أصله وتطوراته. وليس الإقطاع كذلك؛ لكن أقدم صيغه عربية أيضاً.

جـ. وإذا كان الأستاذ الدوري هو الدارس الأول تقريباً لاقتصاديات الدولة العربية الإسلامية؛ فإنه كان بين اثنين أو ثلاثة من الدارسين الذين صحّحوا النظرة الى الدعوة العباسية والدولة العباسية في عصريها الأولَين. وعلى يديه نشأت مدرسة في التاريخ النقدي للدولة العباسية، باعتبارها دولة أو إمبراطورية عربية رغم اختلاف ممارساتها ومؤسستها العسكرية عما كان عليه الأمر أيام الأمويين.

وثالثاً: فإن الوعي العربي عبّر عن نفسه بوضوح في الكتابة التاريخية. إذ أن الوعي بالذات هو الذي يدفع للتاريخ، والتاريخ إنما هو حركة الوعي، ورؤية أو رؤى للعالم. وقد ظل الأستاذ الدوري وقبل كتابه في "نشأة علم التاريخ" يتتبع الوعي العربي من خلال الكتابة في التاريخ. درس كُتّاب السيرة النبوية. ودرس مرحلة الإخباريين. واعتبر كُتّاب التاريخ العالمي على السنين تطوراً للوعي العربي بالذات والعالم مع تطور دولة الخلافة وامتدادها. وقد ناقشته في أن هذا الوعي بالتاريخ لا يشكّل خطاً أفقياً من كتابة السيرة الى كتابة الأنساب والأخبار في التاريخ العالمي.

بل إن "فكرة التاريخ" أو "وحدة العالم" أو رؤيته بشكل شامل إنما جاءت نتيجة النزعة المهدوية والرسالية لدى كُتّاب السيرة النبوية المتأثّرين بالقرآن. إنما بغض النظر عن التفاصيل هنا؛ فإن الأستاذ الدوري أسّس في كتابه "نشأة علم التاريخ" لمدرسة في فهم التاريخ العربي وكتابته، تأثرت في تقنياتها وطرائقها، وفي جوانبها المالية والاقتصادية باتجاهات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي بعد الحرب الثانية؛ لكنها ما سقطت في مسائل البُنى والطبقات والماركسيات؛ بسبب سيطرة مسألة "الوعي" فيها.

ورابعاً: هناك مسائل رؤية العالم كما تبدو من خلال الوعي العربي. والأستاذ الدوري يكتب نظريته أو فَرَضيته، لكنه لا يكتب عنها دراسات نظرية. ويبدو ذلك في سائر بحوثه؛ خصوصاً في كتابه: التكوين التاريخي للأمة العربية. فقد انساحَ العرب في العالم بوعي واعٍ ناشرين لغتهم وثقافتهم ودينهم ودولتهمَ أو سُلطتهم. وكانوا واعين لذلك كلّه، لكنهم ما تصرفوا على أساس خصوصية إثنية أو تسام عرقي. وربما جاء ذلك في نظر الأستاذ الدوري لتمثلهم العميق للإسلام ورسالته العالمية. ومن أجل ذلك تجاوز الأستاذ الدوري رؤية فلهاوزن في كتابه: "سقوط الدولة العربية" عن ثنائية عرب/ عجم. فالحركة الشعوبية هي ردة فعل على الفتوحات وسواد العرب والإسلام، لكن العرب أجابوا عليها بالثقافة المنفتحة، وليس بعنصرية السلطة أو تمييزها. وبسبب هذا الطابع غير الإثني للأمة العربية (والأستاذ الفضل شلق يسمّيه الطابع غير القومي للعرب) أمكن الانتقال بدون صعوبات أيديولودية الى زمان الدولة الوطنية أو القومية.

عمل الأستاذ الدوري على مشروعه لكتابة تاريخ الأمة العربية لأكثر من خمسين عاماً. وجيله الذي بدأ الكتابة في الأربعينات من القرن الماضي هو الذي طوّر كتابة التاريخ العربي والإسلامي الى حِرفة. وقد تأثر جيلنا في المشرق العربي به وبأحمد صالح العلي وجواد العلي، على اختلاف منازعهم واهتماماتهم. وكنّا نعي منذ ذلك الحين أن الأستاذ الدوري يملك مشروعاً يُتابعه بوعي. ثم شدّنا كل من عبدالله العروي وهشام جعيط، والفروق في المنهج كبيرة، لكننا ما أحسسنا تناقضاً أو قطيعة. وأذكر عندما قدّمني الدكتور إحسان عباس للأستاذ الدوري مطلع الثمانينات أنني قلت له: ما أزال أقرأ وأكرّر كتابيك في نشأة علم التاريخ، وفي صدر الإسلام، وهما يتّسمان ببساطة ساحرة، لكن في كل كتبك يا سيدي كشوف وتقنيات ما عرفناها إلا منك، فبارك الله في عمرك وفي قلمك، من أين أتيت بهذه الصلابة في الوعي تحت هذا القناع من الرقّة، هل لأنك عراقي؟ وأقول له اليوم: نحن محظوظون ببقائك بيننا مفكراً وكاتباً في التاريخ العربي وفي الحاضر العربي. وسيظل إيمانك بالأمة وجوداً وانتماء ووعياً واستتباباً بين أكبر أسباب الأمل والعمل، ويا حسرتاه على العراق!

كلمة أُعدت للإلقاء في الندوة المتخصصة التي اقيمت لتكريم الأستاذ الدوري في عمان2007

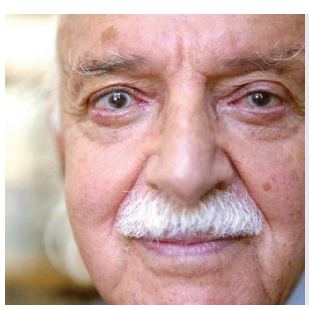

يبدو الوعي العربي في العلاقة بالدولة شديد الوضوح عنده. فالدولة التي قامت في زمن النبي بالمدينة (=كتاب المدينة) دولة عربية، وليس لأن لسانها عربي، وحكامها عرب، وجنودها عرب، ودواوينها تعربت وحسب

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (1970)
السنة الثامنة
الخميس (25)
تشرين الثاني 2010

هكذا تكلم عبد العزيز الدوري:

الحضارة العربية الإسلامية التعددية كانت أساس قوة الحضارة العربية والإسلامية..

هذا الحوار اجري تلفزيونيا مع الراحل عبد العزيز الدوري قبل 10 أعوام في العاصمة الاردنية عمان وسيجد القارئ فيه ان هناك عبارات جاءت باللهجة العامية حاولنا ان نبقيها كما هي حفاظا على روحية الحوار والمعلومات التي جاءت فيه

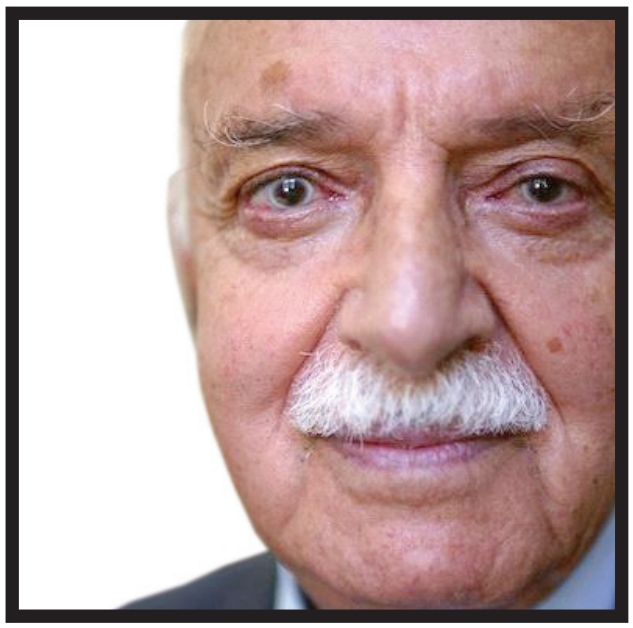

×: مرحبا بكم أعزائي المشاهدين إلى حلقة جديدة من برنامج زيارة خاصة تنقلنا هذه المرة إلى الأردن، هل ينبغي على المؤرخ أن يكون ملتزما بقضايا أمته أم ملتزما بالموضوعية التاريخية؟ هذا جزء مما سنطرحه من أسئلة على ضيفنا المؤرخ العراقي الشهير الدكتور عبد العزيز الدوري، في العراق وُلد الدكتور عبد العزيز الدوري قبل ستة وثمانين عاما، ومن العراق نهل صورا وتواريخ وذهب بها إلى بريطانيا يبحث عما يؤكدها أو يناقضها وهناك في بلاد الضباب حصل على شهادة الدكتوراه في التاريخ عام ١٩٤٢ ليزيل الضباب عن تاريخ العرب والمسلمين، وله الفضل في الكثير من الإيضاحات التاريخية والاقتصادية تماما كما له فضل تأسيسي وترأس جامعة بغداد.. بغداد التي جعلته لظروف سياسية يبتعد عنها ويستقر في الأردن حيث أجرينا معه هذا اللقاء.

المؤرخ بين الموضوعية والاهتمام بالقضايا القومية

– عبد العزيز الدوري: الأردن بلد عربي وبلد قريب للعراق، ولكن ظروف عامة دفعتني إلى ترك العراق والمجيء إلى الأردن.

×: هل تود أن نتحدث ولو بشكل سريع عن هذه الظروف أم تحتفظ بها لنفسك؟

عبد العزيز الدوري: يعني هي الحقيقة ظروف سياسية لا أكثر ولا أقل

×: خلاف مع حزب البعث؟

عبد العزيز الدوري: يعني، ولكن وجدت نفسي غير مرتاح فقررت

×اليوم العراق بلدك بلد الأصل يعيش في الواقع العديد من هذه المصالح المحلية المركزة إذا صح التعبير وهناك خطر كبير عليه، هل حضرتك كمؤرخ عراقي تعرف تاريخ كل هذه المنطقة وما مرت به عبر العصور تعتبر أن ما يحصل في العراق اليوم شيء عابر سوف نخرج منه بعد حين، ولو بعد حين أم أنه يتفكك قواعد جديدة وأن العراق في طور التحلل والضياع ربما؟

عبد العزيز الدوري: أنا أعتقد أن هذه أحوال لا يمكن أن تستمر ولا يمكن أن تفضي إلى التفكك والتحلل، أنا باعتقادي في تاريخ العراق في تكوينه في شبعه من المقومات اللي تحفظ التماسك والاتصال.

×: هل سبق أن عاش العراق هذا التفكك الحاصل حاليا بين أكراد وسنة وشيعة مثلا؟ وكيف ترد على القائلين بأنه كان هذا التآلف تآلفا مؤقتا ومرحليا ولم يكن تآلفا فعليا بين هذه الطوائف الثلاث؟

عبد العزيز الدوري: يعني أولا ما مرت فترة.. يعني أنا الواقع هذا سؤال سألته لنفسي مرارا، ما مرت فترة على العراق مثل هذه الفترة يعني ما كان العراق في وضع مثل هذا في أي فترة سابقة، اثنين لما نحكي عن التآلف إحنا يعني قد ينصرف الدين إلى التآلف السياسي مثلا أو لكن عمليا عبر تاريخ العراق كان دائما في تآلف ليس فقط تآلف اجتماعي تآلف اقتصادي تآلف سياسي.. يعني ما مرت فترة اللي الناس تصادموا يعني على أساس مذهبي يعني تضاربوا وصارت..

×: ولا مرة عبر التاريخ؟

عبد العزيز الدوري: فحصت كل الفترات بما فيها الفترة البوهيية.. يعني هكذا ظواهر ما حصلت، يعني حتى الحياة الاقتصادية كانت كأنما نسيج متآلف كل فئة عندها اهتماماتها دون تضارب بالمصالح فيما بينهم، هذا اللي تكون عبر التاريخ ويعني إحنا من السهل علينا أن نلاحظ عوامل التمزق اللي لما تكون ظاهرة أمامنا لكن عوامل الشد والتماسك هذه لازم نستقريها من دراسة التاريخ، هذه ليست ظاهرة لأنها ما تتمثل بأشياء مادية مثل ما تتمثل التفكك.

× يمكن أن يكون الأمر عابرا إذاً؟

عبد العزيز الدوري: في تقديري نعم

× حضرتك قلت دكتور في أثناء تأسيس جمعية المؤلفين والكتاب العراقيين عم نحكي عن فترة الستينيات

عبد العزيز الدوري: أيام زمان نعم.

×: من ٤٤ عاما إن شاء الله العمر الطويل.

عبد العزيز الدوري: الله يخليك.

×: انت تقول إن مهمة الأديب والكاتب والمفكر أن يعيش واقعه وأن يعي المرحلة التي تمر بها أمته وهو يعمل بعد إذا على الأخذ بيدها إلى المستقبل الذي تنشده وكأن بك تقول أن هناك مسؤولية على المؤرخ على الكاتب على المثقف اليوم في العراق أيضا أن يساعد أمته، أولا سؤالي لك ماذا تفعل اليوم للعراق لكي تساعد بلدك؟

عبد العزيز الدوري: يعني أنا أستاذ وأنا يعني مؤلف فدوري دور القلم، ما يستطيع قلمي أن ينجزه هذا يمثل دوري سامي كليب: خصوصا أنك تتحدث عن دور للمؤرخ.

عبد العزيز الدوري: نعم والمؤرخ ممكن يبصر الآخرين بالأوضاع اللي يعيشوها بالظروف اللي أدت إليها ممكن يعطي مؤشرات للمستقبل إذا أستطاع أن يرى مؤشرات.. يعني أي شخص من أصحاب القلم هذا دوره وهذا يصدق على الأديب ويصدق على الآخرين من الفئات المثقفة.

×: يعني عرفنا نحن عبر حقبات التاريخ من رمى الكتب في النهر حتى صار النهر أزرق ومن أحرق المكتبات ومن قتل الحضارة وفي الواقع للأسف أنه العراق كان في أكثر من مناسبة ضحية لمثل هذه الهجمات طيب اليوم ما هو الخطر الأهم على الحضارة والتاريخ العراقيين في الفترة التي نعيش فيها؟

عبد العزيز الدوري: يعني أنا أعتقد الخطر الأكبر هو الفتنة.

×: من بلدة الدور العراقية أخذ عبد العزيز الدوري اسمه، كانت الدور قرية صغيرة من عشائر خمس وصارت اليوم قضاء وفيها تعلم في مدارس الكتاب حيث حفظ القرآن الكريم ثم درس في بغداد وبعدها بريطانيا قبل الحرب العالمية الثانية، سمحت له دراسته هناك في التعرف على إنتاج الغربيين والمستشرقين ومقارنة بذلك بموروثنا العربي الإسلامي.

عبد العزيز الدوري: فقد أكون ممن يرى في منهج بحث التاريخ دليلا أساسيا لكتابة التاريخ بعمق وموضوعية ولكني أرى أن التاريخ وبخاصة تاريخ الأمة موضوع حي فينا يؤثر بوعي أو بدونه وبدرجات في حياتنا وفي نظرتنا وحين نتعرض لهزات عنيفة نرجع إلى هذا التاريخ قريبه أولا وبعيده ثانيا نحاول استقراء الظروف والتطورات التي أدت إلى ما حصل وربما للتطلع إلى المستقبل، بالحقيقة إحنا لازم أقول إن الاتجاه في الدراسة في الفترة اللي أتحدث عنها كان نحو تعزيز أمرين.. الروح الوطنية والروح العربية القومية، فكان يهتموا بتدريس التاريخ والكتب اللي كانت تكتب كانت كتب يعني مؤثرة، فإضافة إلى أننا يعني نسمع كثيرا من القصص عن التاريخ في نطاق الأسرة يعني إحنا التاريخ تاريخان، التاريخ الذي نجده الكتب والتاريخ الذي نجده في صدور الأمهات والجدات

× أطروحة الدكتوراه كانت بعنوان التاريخ أو بالأحرى تاريخ العراق الاقتصادي للقرن الرابع الهجري

عبد العزيز الدوري: ربما كانت هذه أول دراسة شاملة لموضوع الحالة الاقتصادية في الدولة العباسية، أنا أخذت العراق على أساس هو مركز الدولة العباسية فلما أتكلم عن التطورات الاقتصادية عن النظم الاقتصادية أخذ صورة ممكن أن نقول صورة شاملة وبطبيعة الحال في نشاط اقتصادي كبير خصوصا نشاط تجاري نشاط يعني صيرفي نشاط يعني لأول مرة ممكن نتحدث عن تأسيس يعني مصارف.. يعني حتى من جملتها مصرف رسمي للدولة استمر لمدة تقرب من ربع قرن، يعني في كانت حيوية ونشاط

×: وكان في قوانين ترعى هذه المؤسسات الاقتصادية يعني؟

عبد العزيز الدوري: الإشراف هو إشراف الدولة ولكنه إشراف يحمي المستهلك أكثر من أي شيء آخر وفيه أيضا رعاية للتجارة لأنهم يوفرون أشياء لا يوفرها غيرهم، فمثلا لما في سنة من السنوات كمثل احترقت مجموعة من الدكاكين أو الحوانيت في منطقة الكرخ إللي هي منطقة تجارية كبرى الخليفة أعطى مبالغ للمتضررين تشجيعا منه.

أما التجار الكبار.. لا التجار الكبار دورهم أكبر.

×: ولا شك أن كل من سيقرؤنها سيتعلم الكثير، نشأة علم التاريخ عند العرب وفيه يعني معلومات قيمة عن كيف تطور هذا التاريخ، أنا لفتني دكتور عبد العزيز دوري أنه تتحدث عن عمر بن الخطاب تقول إنه وضع تقويما ثابتا هو التاريخ الهجري فأصبح عنصرا حيويا في نشأة الفكرة التاريخية وقام بتأسيس الديوان أو سجل المحاربين وأهليهم حسب قبائلهم وهذا أعطى الأنساب أهمية جديدة.. الأنساب طبعا أصبحت مهمة معه وكان حافزا إضافيا للاهتمام بدراسة الأنساب مع عمر بن الخطاب.

عبد العزيز الدوري: التاريخ بكل تبسيط فيه ثلاثة عناصر.. الإنسان، المكان، الزمان.

وأي حدث لازم فيه العناصر تتوفر، أي شيء تاريخي فيه ثلاثة عناصر، فلما يكون هناك تقويم يرجع إليه صعب أن

الحضارة الإسلامية مجموعة متنوعة من أقوام ومن ديانات ومن شعوب مختلفة

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1970)
السنة الثامنة
الخميس (25)
تشرين الثاني 2010

تحكي فقط عن الإنسان والأرض، قصص العرب قبل الإسلام هذه مشكلتها يكون عن الغزوة الفلانية في المحل الفلاني ، فوضع تقويم طبعا هذا لأغراض الدولة، يعني قسم اتصلوا بيه وقالوا إحنا تجينا رسالة منك ما نعرف في هذا الشهر أو هذه السنة أو السنة القادمة.

×: وهذه بدأت مع عمر بن الخطاب؟

عبد العزيز الدوري: أي نعم لأنه التنظيم العام الأول للإدارة كان في زمنه فكان لابد يعني لا بد من وضع تقويم فاتخذوا التقويم الهجري ابتداء من هجرة الرسول.. التقويم القمري والبداية بهجرة الرسول للمدينة لأن هذا الحدث الفاصل وكان لا بد ضمن التنظيمات من وضع سجل بالمقاتلة، يروحوا يقاتلوا في الجبهات طيب منهم أيش أنسابهم فاختيرت لجنة خاصة من النسابين ورتبت الأنساب والسجل وضع على أساس الأنساب من آل الرسول ثم الأقرب فالأقرب أو الأبعد فالأبعد.

× أنا سألك دكتور لأن الأمر مهم إنه دائما نسمع في الغرب إن العرب نقلوا الكثير من الحضارات والفلسفات اليونانية وما إلى ذلك وإنه بفضل العرب انتقلت إلى الدول الغربية هذه الحضارات أيضا، صحيح هذا الكلام؟

عبد العزيز الدوري: يعني العرب أخذوا نظرة المجتمعات العربية الإسلامية الأولى نظرة مفتوحة، يعني خذ الحكمة لا يضرك من أي وعاء خرجت، فأخذوا الكثير عن اليونان يعني من اللغة اليونانية من اللغة السريانية من الهندية من الفهلوية فيه مجالات مختلفة لكن حسب حاجتهم وحسب تطلعاتهم.

سامي كليب: وهم الذين نقلوها إلى الغرب؟

عبد العزيز الدوري: ثم أضافوا، لم يكتفوا بالنقل طيب.. النقل هو يؤدي إلى تراكم المعرفة، المعرفة لما تتراكم لابد هناك رغبة عند اللي يراكموها إلى التطوير إلى الإضافة فهم نقلوا ما أخذوا وعلمهم أيضا انتقل إلى الغرب، الترجمات الواسعة في الغرب شملت الاثنين.. مو فقط العلم اليوناني مثلا أو الفلسفة اليونانية، الإضافات العربية الإنجاز العربي أيضا تُرجم خصوصا في الطب، نعم..

سامي كليب: ثمة من يقول إنه السريان أو السريانيون هم الذين نقلوا هذه الفلسفات.. يعني انتقلت باللغة السريانية في البداية وليس العربية، صحيح الكلام؟

عبد العزيز الدوري: العرب يطلقون على علومهم اللي هم طوروها وكونوها العلوم العربية والإسلامية، المأخوذة عن اليونان وغيرهم علوم الأوائل، فبدايات الترجمة ساهم بها السريان لأن فيه ترجمات من اليونانية إلى السريانية قبل الإسلام.

سامي كليب: طيب ماهو السبب إنه هم الذين ساهموا وليس غيرهم أو سبقوا غيرهم في هذه المساهمة؟

عبد العزيز الدوري: لأنهم كانوا جزء من هذه المنطقة الجزء النشط والحيوي اللي يتصل يتعلمون اللغة اليونانية وينقلون منها إلى السريانية، فبالعصر العباسي قسم من الترجمات كانت من السريانية بعدين الترجمة لا تكون شيء بحد ذاتها اللي يبدو الآن الذين ترجموا هم أيضا كانوا علماء بحيث عملهم لم يقتصر على النقل وإنما على استيعاب المنقول وتقديمها بشكل يمكن أن يفهم ويتابع..

×: في خلال بحثه عن التاريخ العربي والإسلامي تميز المؤرخ العراقي الدكتور عبد العزيز الدوري بنزعته القومية العربية، البعض اعتبر ذلك قيمة مضافة إلى التاريخ نظرا لعمق الالتزام وأهميته والبعض الآخر رأى في ذلك نأيا عن الموضوعية.

عبد العزيز الدوري: دور أن الحضارة العربية الإسلامية في التاريخ مو عامة خصوصا في الكتابات الغربية يعني يكتبوا عن تاريخ مثلا الكيمياء أو تاريخ العلوم عند الإغريق العلوم بالعصور الوسطى بأوروبا الفترة الحديثة، قليل يعني قليل تجد كتابات تضع الحضارة العربية الإسلامية في مكانها وتظهر دورها، فبطبيعة الحال الواحد من أبناء هذه الأمة لما يكتب يهمه أن يشوف إيش كان دورها.. هذه من ناحية، من ناحية ثانية يعني تاريخ يعني القومية هي حركة حديثة تتخلص في شيء واحد أن هذه الأمة من حقها يكون لها دولة واحدة وهذه الدولة معناها قوة ولهم تعزيز لإمكانياتهم تمكينهم من المشاركة..

× تتحدث عن العرب؟

عبد العزيز الدوري: نعم فهذه جوانب طبيعية فالذي يكتب في التاريخ لا يستطيع أن يعلق نفسه في برج عالي هموم أو مشاكل الثقافية و الاجتماعية اللي تواجهه تفرض نفسها، هل تريد أن تكتب شيء نظري؟ وإلا خير العلم ما ينفع راح تكتب قضايا لها علاقة بهموم الناس ومشاكلهم ولكن المفروض أن تكون الكتابة وفقا للأسلوب والمنهج

× العلمي.

عبد العزيز الدوري: العلمي التاريخي.

×هنا السؤال أنه هل يمكن أن تكون قوميا عربيا مناضلا لقضايا أمتك وتكتب تاريخا بشكل موضوعي منزه مجرد؟

عبد العزيز الدوري: يعني أنا قناعتي نعم ممكن الكتابة بشكل موضوعي وبشكل دقيق إلى حد التحدي، إذا كنت لا تقبل بهذا تفضل قدم ما عندك، أما أنك تقول هذا والله هذا صحيح مقبول لكن أنا ما مرتاح هذا شيء آخر.

العراق..

×: استغلت بعض كتبك للقول أنه والله الدكتور عبد العزيز الدوري دائما يسقط القضية القومية على كل كتابة التاريخ وهذا خطأ كبير في كتابة التاريخ.

عبد العزيز الدوري: يعني أنا كنت أتمنى لمن يقول إنه يسقط القومية أن يعطيني مثل، أنا لما أتحدث عن القومية أتحدث على فكرة في الكتابات الأكاديمية والكتابات الثقافة العامة، الكتب الثقافة العامة المعلومات فيها دقيقة ولكن من حق الكاتب أن يتصرف.

×: في كتابه مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي والفترة القائمة بين بداية الخلافة العربية الإسلامية ونهاية المرحلة العثمانية بين القرنين السابع والتاسع عشر ميلادي كانت النية واضحة لدى الدكتور عبد العزيز الدوري للتأكيد على دور العرب في القرون الإسلامية الأولى ومن يقرأ كتبه سيجد هذا النزوع العربي عنده طاغيا واليوم وفيما السيوف تشحذ وصليلها يصم الآذان من بوابة محاولات التفرقة بين العرب والفرس تبدو كتب عبد العزيز الدوري مهمة للتأكيد على الانسجام التاريخي بين العرب والفرس واعتباره أن المشاكل كانت عابرة وأن التعاون الفكري والثقافي والإبداعي كان ثابتا عبر هذا التاريخ، فلماذا تم تشويه هذه الصورة إذا؟

عبد العزيز الدوري: أنا أقول أن أساس التشويه هو دراسة التاريخ على أساس عنصري.. التاريخ العربي الإسلامي على أساس عنصري لأن هذا نقيض جوهر هذا التاريخ..

×: على أساس عنصري من الطرفين؟

عبد العزيز الدوري: من أي طرف كان لأن الإسلام كدين كحركة كعقيدة منظاره مختلف، البشر سواء.. الفضل بالتقوى، فبعض خصوصا مؤرخين القرن التاسع عشر الغربيين حاولوا حسب بيئتهم.. هم يتأثرون ببيئتهم يعني يعطونا تفسير عنصري، ربما كان لهذا أثر، ربما أيضا التبسيط الزائد يأخذ هذا المنحى، يمكن تقسيم الناس حسب اللغة إلى عربي لغة وأعجمي، لكن هذا كله شيء وتفسير حركة التاريخ على هذا الأساس شيء آخر، الفرس ساهموا مساهمة كبيرة في الحضارة العربية الإسلامية

× مثلا؟

عبد العزيز الدوري: يعني تفضل يعني لما نتكلم عن الزمخشري نأخذ مثل متطرف شوي يكتب لنا الكشاف يكتب لنا معجم في غاية الأهمية يكتب لنا عن اللغة العربية، لما ننظر اللي شاركوا يعني في الأدب العربي، اللي شاركوا بالحضارة النسب هم إيرانيين لكن نسبهم إيراني فارسي، لكن هم فطاحل بالعربية، هم شعراء، أبو نواس، هم أدباء بارزين مثل يعني بن المقفع، ناس ساهموا في بناء الحضارة في كل مرحلة نمشي بها والحقيقة فئة قليلة اللي نطلق عليها اسم شعوبية اللي هم لم يكونوا من المسلمين المؤمنين، في ناس يسموهم الزنادقة اللي هم مانوية مكيفة للبيئة الإسلامية بالعصر العباسي.

سامي كليب: على كل حال تعطي مثال خرسان وتقول إنه كان وصل الاندماج بين العرب والفرس إلى درجة أصبح من الصعب التمييز بين الطرفين.

عبد العزيز الدوري: أي نعم وبعدين حقيقة نقطة أساسية أنا أعتقد الحضارة العربية الإسلامية وأسميها عربية للغة اللي كتبت بها العربية يعني من أسباب قوتها من الأسباب الرئيسية كونها حضارة شارك فيها مجموعة متنوعة من أقوام ومن ديانات ومن شعوب مختلفة، التعددية كانت أساس قوتها.

×: طيب لماذا يقال إن الدولة الصفوية نسبة إلى الشاه إسماعيل الصفوي كانت معها بدأت النزعة الفارسية القومية الناهضة في بعض جوانبها للعرب، صحيح ما الكلام؟

عبد العزيز الدوري: يعني هذا الكلام غير دقيق، الدولة الصفوية صراعها ما كان مع العرب.. صراعها مع العثمانيين، ساحة الصراع الأولى يمكن كان العراق وشماله لكنه خلال أربع قرون الصراع بين الاثنين بين الدولة الصفوية اللي أساسها أو النواة الأولى طريقة صوفية يسموها قز الباش.. يلبسون طاقيات حمراء والدولة العثمانية اللي عندها أيضا طريقة أخرى اللي تبارك السلاطين وتعطي الدفعة المعنوية اللي يسموهم بكتاشية، فعندك الدعاية دعاية من الطرفين تبدو دينية كردالية سياسية، القز الباش ينتشرون شرق آسيا يظلون يبثون طريقتهم شرق آسيا الصغرى والبكتاشية يدفعون حدود الدولة العثمانية أكثر آسيا الصغرى وغيرها فكان صراع بين الطرفين، العرب ما كانوا طرف به.

×: طيب هل قدم العرب فعلا أشياء مهمة للفرس؟ يعني حضرتك تحدث عن بعض الكتاب عن الفلاسفة بعض الشعراء الفرس الذين كتبوا باللغة العربية وقدموا الكثير للدول العربية، بالمقابل ماذا قدم العرب للفرس عبر التاريخ عبر هذه العلاقة؟

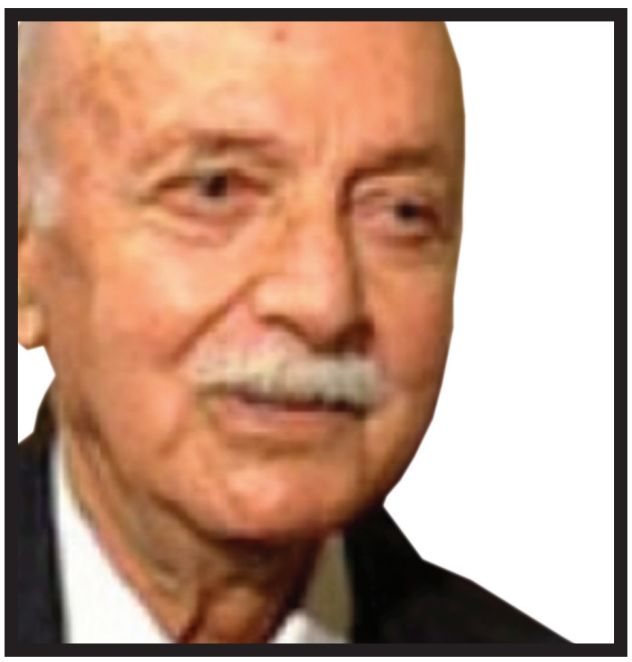

عبد العزيز الدوري: أيش يعني قدم العرب للفرس؟ كيف؟ إحنا ما قلنا الفرس قدموا للعرب، الفرس قدموا للحضارة..

×: للحضارة بالضبط ومنها الحضارة العربية...

عبد العزيز الدوري: وأنا قلت سميتها عربية لأن اللغة اللي وضعت بها العلوم ،واستخدمت عربية فيعني العرب هم الذين خلينا نكون واضحين أولا الإسلام اللي جاء به نبي عربي واللي حمل رسالته أول الأمر وقام بالفتوح هم العرب واللي بدؤوا العلوم العربية والإسلامية اللي هي التفسير والحديث والفلك ،: والعلوم الأدب واللغة وكدا أيضا كانوا عرب وبعدين بالتدريج بدأ غير العرب يساهمون فالقاعدة والأساس كان عربي.

×أنا حين قرأت مؤلفاتك على الأقل الجزء الأكبر منها فهمت إنه حضرتك تدافع عن الفكرة الأخرى إنه التعاون بين الفرس والعرب التعاون الثقافي التعاون الفكري التعاون الفلسفي..

عبد العزيز الدوري: في كل شيء.

× كان تعاون على مدى قرون وكان رائد وقدم للحضارتين الكثير يعني.

عبد العزيز الدوري: يعني الزمخشري يكتب لي أساس البلاغة معجم من أروع المعاجم، يعني منين ما نلتفت لان النظرة ما كانت هذه النظرة هي أساسها ثقافي، دائما النظرة هذه أساسها المساهمة بالحضارة المساهمة بالثقافة ما فيه هذه المواجهة، هذه من اختراعات الخيال يعني غير تاريخي على كل حال.

×: خلافا لسعيه لتبيان التآلف والانسجام التاريخيين بين الفرس والعرب فإن المؤرخ العراقي الدكتور عبد العزيز الدوري حاول من خلال كتبه الكثيرة والقيمة العودة إلى بعض الأفكار الخاطئة بشأن كيفية تلاقح الحضارات، فهو مثلا يخالف كثيرا آراء أولئك القائلين بأن حملة نابليون بونابرت على مصر هي التي ساهمت في إغناء الحضارة العربية.

عبد العزيز الدوري: يا سيدي المشكلة من المشاكل اللي نحاول نواجهها بالتاريخ هي نسبة تطورات حضارية إلى أفراد.. هذا لا يحدث لا يحصل، يعني إذا ما في بدايات حركة ونهوض ما ممكن يجيء فرد يغير هذا الجو، بالنسبة من زمن يعني صارت مثل البديهيات أو المسلمات أن الحملة الفرنسية حملة نابليون على مصر هي بداية الحضارة.. لا، في بدايات تنبه ونهضة وإعادة نظر قبل الحملة، القرن الثامن عشر محمد بن عبد الوهاب والحركة الوهابية، بعدين فيه حركات أخرى بنفس الخط في تجدد الإسلام، تجيء لمصر حركة بالتاريخ يأتينا الجبرتي يكتب لنا شيء مختلف تماما عن المسيرة التاريخية اللي قبلها ويضع عناصر جديدة ولأول مرة يركز على الوثائق وعلى النقوش إلى آخره، تشوف بنفس الوقت عندك الزبيدي يضع لنا معجم ضخم تاج العروس في اليمن ومصر.. بين اليمن ومصر وهو يمني، تلقى بالعراق الآلوسيين بهذه الفترة، تجيب الشام مرتضى المرادي، هذه كلها بنفس الوقت أيضا تشير إلى بداية على رأي البعض بداية حركة تجارية نشطة بمجتمع مصر تبشر بتطورات جديدة.. كل هذا قبل نابليون، يعني تمام نابليون جاء وعمل نوع من المسح لمصر وكتب كتبه والعلماء وياه كتاب، تمام عمل مختبر ومكتبة وصار أمل صحيفة لكن هذا ما يكون حركة ثقافية بدون ما يكون فيه ناس.. الحسن العطار عندك أيضا له دوره بنفس الفترة وصار مترجم ديوان.

العرب يطلقون على علومهم اللي هم طوروها وكونوها العلوم العربية والإسلامية، المأخوذة عن اليونان وغيرهم علوم الأوائل، فبدايات الترجمة ساهم بها السريان لأن فيه ترجمات من اليونانية إلى السريانية قبل الإسلام.

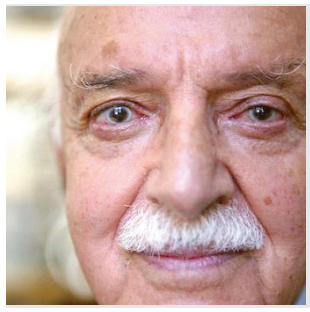

من زمن التوهج
العدد (1970)
السنة الثامنة
الخميس (25)
تشرين الثاني 2010

التكوين التاريخي للأمة العربية:
مراجعة وتحية إلى عبد العزيز الدوري

حسن حنفي

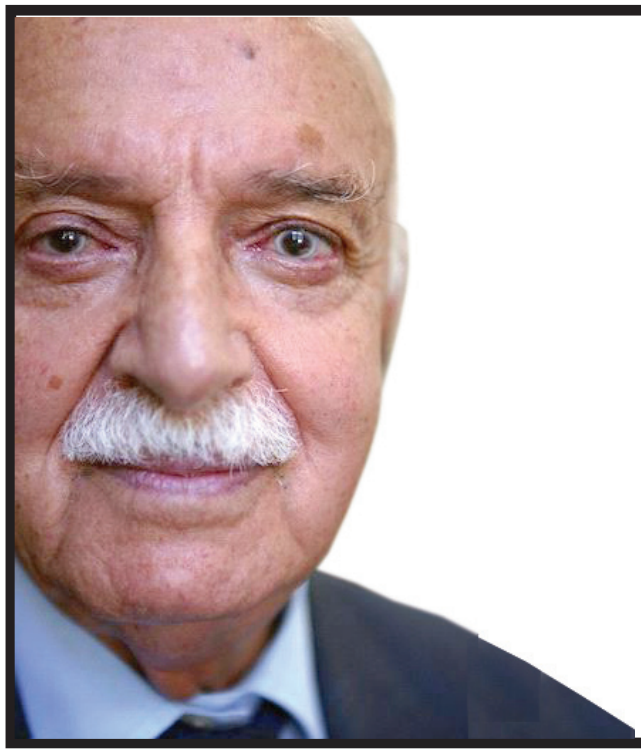

التكوين التاريخي للأمة العربية من أهم مؤلفات الدوري وأحدثها.
يغوص في أعماق الشخصية العربية لمعرفة مكوناتها التاريخية اعتماداً على منهج النشأة والتكوين، أي التراكم التاريخي للظاهرة.
وهو ما يسميه البنيويون التتالي الزماني (Diachronism) من اجل التعرف على ماهيتها، الهوية والوعي، الهوية الثابتة، والوعي المتغير، وهو ما يسميه البنيويون أيضاً المعية الزمانية (Synchronism)، ضد خطأين شائعين: الأول ان الشخصية العربية جوهر ثابت، وماهية أبدية لم تتغير، خارج التاريخ، وتتجاوز الزمان والمكان كالذات الإلهية.
والثاني انها مجرد تتبع تاريخي ووجود للعرب في التاريخ، دون ان يكون لهم هوية وراء الحوادث أو وعي يتحكم فيها. الأولى النزعة الجوهرية أو الماهوية (Essentialism)، والثانية النزعة التاريخية (Historicism).
فالكتاب منهج وتطبيق، نظرية وممارسة.

وهذا عرض نقدي للكتاب تحية له، وتقديراً لشخصه المتواضع ووداعته وإنسانيته، وان كان اقرب إلى العرض منه إلى النقد. لا يظهر النقد إلا في بعض التساؤلات بعد الخاتمة، لعلها تثير التفكير وتجد الإجابة. هذا العرض والتساؤلات تكريم متواضع لشيخ المؤرخين العرب والمفكر القومي الرصين.

وقد طبق المنهج التاريخي الاجتماعي الاقتصادي السياسي باقتدار. فالتاريخ ليس مجرد حوادث صماء بل هي حوادث لها دلالات وآثار في المجتمع وتكوينه سياسياً واقتصادياً وثقافياً. لذلك تظهر مفاهيم النشأة والتكوين والجذور في عديد من الفصول: نشأة الثقافة العربية، تكوين المجتمع العربي، ويظهر ذلك في مجموع كتاباته السابقة.

والظواهر الاجتماعية مستقلة عن الشخصيات التي تعبر عنها وعن التنظيمات والجمعيات التي تجسدها. ومع ذلك ضم الكتاب شخصيات ساهمت في بلورة الوعي العربي والهوية العربية، كما ضم تنظيمات وحركات وجمعيات ساهمت في تطور الوعي العربي.

وقد ظهر في وقت بدأ العرب يتشككون في وجودهم التاريخي، وهويتهم القومية ووعيهم السياسي بعد هزيمة حزيران/ يونيو ١٩٦٧. ولم تنجح حرب تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣ بفضل تحالف مصر وسوريا في إعادة الوعي لهم أو فشل العدو الصهيوني في اجتياح بيروت ١٩٨٢، وبانسحابه من جنوب لبنان ٢٠٠٢، وبانتصار المقاومة في الجنوب عليه في تموز/ يوليو ٢٠٠٦، ثم في غزة في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٨- كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٩، نظراً إلى التفريط في نتائج حرب تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣ بالانفتاح الاقتصادي والتحالف مع الولايات المتحدة، وبصلح مصر المنفرد مع العدو الصهيوني ابتداء من كامب ديفيد في ١٩٧٨، ثم معاهدة السلام العربية- الإسرائيلية في آذار/ مارس ١٩٧٩، ثم معاهدة وادي عربة بين الأردن وإسرائيل في ١٩٩٤، ثم افتتاح سفارة للعدو الصهيوني في موريتانيا قبل إغلاقها بعد الانقلاب الأخير، وافتتاح مكاتب اتصال له في قطر والمغرب وتونس.

ظهر في وقت بدأت تعصف بالوطن العربي موجات من الطائفية، سنة وشيعة في العراق والخليج والسعودية، ومسلمين وأقباط في مصر، ومن العرقية، عبر وبربر وكرد وتركمان في العراق والمغرب العربي، بل ومن القبلية في السودان بين شماله وجنوبه، وشرقه وغربه. بل ظهرت النزاعات الحدودية بين قطرين عربيين متجاورين مثل المغرب والجزائر، والسعودية واليمن، والعراق والكويت، وقطر والبحرين، ومصر والسودان، ولبنان وسوريا، والأردن وفلسطين، ومصر وفلسطين. ويصل بعضها إلى النزاع المسلح. وسادت القطرية: مصر أولاً، الأردن أولاً، الكويت أولاً. وأصبحت مؤتمرات القمة مجرد اجتماعات احتفالية للمصالحة بين القادة العرب. واستمرت جامعة الدول العربية شكلاً بلا مضمون، وعم التغريب والارتماء في أحضان الغرب باسم العولمة والاستثمار ورأس المال الذي ليس له وطن، والدولة بلا حدود ولا سيادة وطنية ولا استقلال اقتصادي. وأصبح التحالف مع الولايات المتحدة هو السلوك الطبيعي، وقبول قواعد عسكرية لها داخل الوطن العربي، على أرضه وفي بحاره.

بل زاد عدد المهاجرين العرب إلى إسرائيل والمتزوجين من إسرائيليات. وخرج جيل جديد عربي إسرائيلي، لا يعرف العدو من الصديق، دار الإسلام من دار الحرب. فالكتاب يعبر عما هو كائن في اللاوعي العربي، ولا يعبر عنه احد، وإلاّ وكان يسبح ضد التيار.

يضم الكتاب سبعة فصول: ثلاثة في النشأة القديمة، وأربعة في التكوين الحديث.

الفصل الأول، وهو اصغر الفصول وعنوانه: (العرب قبل الإسلام: الموطن والموقع والأصول). الموطن هو المكان، والموقع هو التكوين القبلي، والأصول هي بدايات تكوين الهوية العربية والتكوين العربي. ولا ينفصل العرب عن باقي القبائل السامية مثل الكلدانيين في شبه الجزيرة العربية، وترجع أصولهم إلى ثمود وسبأ. وشبه الجزيرة العربية مفتوحة من جوانبها الأربعة، الشمال نحو الأتراك، والشرق نحو الفرس، والغرب نحو مصر، والجنوب نحو الأحباش. وقد تفاعلت مع هؤلاء عن طريق التجارة أو الغزو. بيئتها صحراوية تعيش على المراعي. وثقافتها الشعر. ليس لقبائلها انساب مكتوبة. معروف انهم ينتسبون إلى عدنان وقحطان. أولاد قحطان هم العرب العاربة، وأولاد عدنان هم العرب المستعربة. قحطان في الجنوب ناحية اليمن، وعدنان في الشمال ناحية الشمال.

وكان الدين عاملاً أساسياً في حركة القبائل، المسيحية في نجران وفي الحبشة وبيزنطة، واليهودية في شبه الجزيرة، والمجوسية في فارس، والحنيفية في قريش بتقاليدها في الأشهر الحرم والإيلاف والمعلقات. وهي العناصر التي جمعها الإسلام

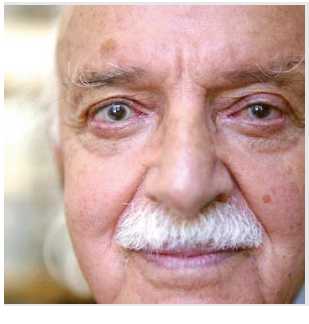

قد طبق المنهج التاريخي الاجتماعي الاقتصادي السياسي باقتدار، فالتاريخ ليس مجرد حوادث صماء بل هي حوادث لها دلالات وآثار في المجتمع وتكوينه سياسياً واقتصادياً وثقافياً. لذلك تظهر مفاهيم النشأة والتكوين والجذور في عديد من الفصول

في الدين الإبراهيمي الجديد. وظهر القران كأحد الأنواع الأدبية مع الشعر وسجع الكهان، وكان ظهور الخط العربي وقت ظهور الإسلام، مزيجاً من الآرامية والنبطية. وكانت القبيلة أو العشيرة هي الوحدة السياسية للعرب قبل ان يحولها الإسلام إلى الأمة. فالإسلام تكوين عربي قبله وساهم فيه بعده. هو مقدمة ونتيجة، وسيلة وغاية، علة ومعلول. هناك بين الجاهلية والإسلام اتصال أكثر من الانفصال، على عكس ما هو شائع عند بعض الوعاظ: (خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام). وحلف الفضول قبل الإسلام دليل على ذلك الذي يأخذ حق المظلوم من الظالم. ولو كان الرسول حاضراً لكان احد موقعيه.

والفصل الثاني (الإسلام والعربية: تكوين المجتمع العربي الإسلامي)، بعد ظهور الإسلام طبقاً للمنهج التاريخي سواء في المشرق أو في المغرب. فقد انتشر الإسلام شرقاً إلى إيران وأواسط اسيا قدر انتشاره غرباً إلى المغرب العربي حتى الأندلس. فقد أعطى الإسلام العرب عقيدة وامدهم برسالة، وأبطل الصراع بين القبائل، وفرض الجهاد. ووحدهم في امة لا يحدها زمان ولا مكان، يتفاضل أفرادها بالعمل. وجاء القرآن بلسان عربي مبين. وقامت مؤسسة الخلافة لتضع شكلاً من أشكال النظام السياسي، لا يقوم على الوراثة بل على الاختيار الحر طبقاً لمبدأ الشورى. وهذا لم يمنع المسلمين من الوقوع في الفتنة لغلبة المصالح السياسية على نظم سياسية غامضة. ثم دخلت الوراثة في العصر الأموي، وأصبحت السلطة بأيدي العرب وحدهم، مما سبب رد فعل عند العباسيين الذين اعتمدوا على الموالي من الفرس مع استمرار مبدأ الوراثة وارتباطها بالمشيئة الإلهية. ثم ظهرت سلطة الأتراك. وضعفت الدولة المركزية. وظهرت إمارات شبه مستقلة تعترف بالخليفة العباسي شكلاً. الأمة مصدر السلطة، و العدل أساس الحكم، والخلافة بالاختيار المباشر أو من أهل الحل والعقد، والشورى دليل مشاركة الأمة. ودخل كل ذلك في مقومات تركيب الأمة. وكانت اللغة العربية لغة الفاتحين. فتعربت الشعوب المفتوحة في مصر والمغرب العربي. وأبقت شعوب أخرى على لغتها مثل الفرس والترك، واعتبر الموالي عرباً لتشجيع التعريب، ورفعت عنهم الجزية. فساعد الإسلام على نشر التعريب، ثم ساعد التعريب على نشر الإسلام. وساعدت الثقافة بعد ذلك على نشر التدوين بالعربية، فعربت الدواوين التي كانت تكتب بالفهلوية في المشرق، وباليونانية أو القبطية في المغرب. وانتشر التعريب في الشام بناء على انتقال القبائل العربية من الجنوب إلى الشمال. ووزعت الأراضي على القبائل. وانتشرت طرق التجارة. وتم تعريب مصر تدريجياً من الشمال إلى الجنوب. ثم أنشئت مدن للثقافة العربية كالقيروان في تونس، وفاس في المغرب، بالرغم من ثورات الخوارج في المغرب. واتخذها البربر لغة التخاطب، ولغة الفتوحات، ولغة الدين. تجلى الوعي العربي إذن

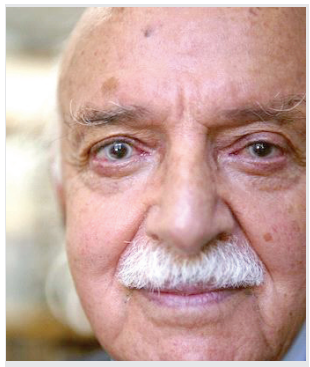

كما ظهرت علوم التاريخ لجمع أخبار العرب وسيرة الأمة الجديدة الناشئة. وكانت الترجمة عن اليونانية غرباً، والفارسية شرقاً، التي أمدت علماء المسلمين بلغة وتصورات ومناهج جديدة ينسجون عليها. وظهرت تيارات عدة، قبلية قديمة وإسلامية جديدة، أنصار فارس كمسكويه، وأنصار اليونان كالفلاسفة، خاصة إخوان الصفا.

في اللغة العربية. فالعروبة نتيجة التعريب، والتعريب نتيجة انتشار الإسلام.

والفصل الثالث (الأمة العربية- الهوية) يصف تجلي الوعي العربي أساساً في الهوية والثقافة بعد نشأة العلوم الإسلامية وظهور مفهوم الأمة العربية في الواقع وفي الفكر والأدب وفي الوعي الشعبي. فقد تحولت العروبة إلى تعريب في القرنين الأولين.

ثم تحول التعريب إلى ثقافة وعلوم ابتداء من القرن الثالث. فقد بدأ العرب بدراسة القرآن المصدر الأول للدين الجديد، وانشأوا علوم القران، ثم جمعوا الحديث، وانشأوا علوم الحديث. ثم بدأوا تفسير القرآن في علوم التفسير. ثم وضعوا سيرة الرسول في علم السيرة أسوة بسير الأنبياء السابقين. ثم قننوا الفقه، عبادات ومعاملات في علوم الفقه. وبالتالي نشأت العلوم النقلية الخمسة. وبعد عصر الترجمة في القرن الثاني الهجري نشأت العلوم النقلية العقلية التي يجتمع فيها النقل والعقل، علم أصول الدين، وعلم أصول الفقه، وعلوم التصوف، وعلوم الحكمة، اي الفلسفة كي تدون معظمها باللغة العربية، وان كان بعض مصنفيها غير عرب ولكن تعربوا، وكتبوا بالعربية. فقد أصبحت العربية ليست فقط لغة التخاطب الشفاهي بل أيضاً لغة التدوين. وظهرت علوم اللغة تجمع بين النقل والعقل، بين الشواهد والقياس، على أيدي رواة النحو وواضعي المعاجم.

كما ظهرت علوم التاريخ لجمع أخبار العرب وسيرة الأمة الجديدة الناشئة. وكانت الترجمة عن اليونانية غرباً، والفارسية شرقاً، التي امدّت علماء المسلمين بلغة وتصورات ومناهج جديدة ينسجون عليها.

وظهرت تيارات عدة، قبلية قديمة وإسلامية جديدة، أنصار فارس كمسكويه، وأنصار اليونان كالفلاسفة، خاصة إخوان الصفا.

وبدأ التقابل بين العرب والعجم في الشعر، وفي تصنيف العلوم، كما في (الفهرست) لابن النديم. وتنوعت الأنواع الأدبية بين النثر والشعر والمادة الأدبية بين الشعوبية والعربية. وظهر أنصار العروبة عند الأدباء والمؤرخين والشعراء، يركزون على نقد الجاهلية ، ويظهرون دور العرب في التاريخ. ويتحدث ابن المقفع عن سجايا الأمة، والفارابي يرى ان الأمة غاية التجمع البشري. ويجعل المسعودي للسان العنصر الرئيسي لتكوين الأمة.

ويظهر ابن خلدون العرب امة أصحاب خصائص مميزة، وفضل بديع الزمان الهمذاني (٣٩٨هـ) العرب على غيرهم من الأمم، وارجع الزمخشري العروبة إلى العربية، ولاحظ البيروني صلة العروبة بالإسلام. وتجلى هذا الموقف بوضوح في الشعر العباسي. قامت العروبة على أساس لغوي ثقافي، وليس على أساس عنصري شعوبي. وتوارت مفاهيم القبيلة والنسب. وشارك العامة في بلورة الوعي العربي في مجموعات منظمة مثل العيارين والشطار والفتيان.

والفصل الرابع (العرب في عصر التنظيمات) حتى الفصل السابع يصف تحول العروبة من ظاهرة لغوية ثقافية إلى ظاهرة سياسية قومية، كما تحولت اليهودية من تيار روحي ثقافي عند الكالي في القرن الثامن عشر إلى تيار سياسي قومي عند هرتزل في القرن التاسع عشر. وقد بدأت التطورات الاقتصادية ومظاهر التحديث والإحياء الثقافي ومفاهيم الوطنية وحركة الوجهاء والمناشير في الظهور.

وقد بدأ هذا العصر بالإقطاع العسكري في العراق الذي ورثه العثمانيون الذين واجهوا به الدول الأوروبية، فأقاموا المصارف الأجنبية، وسنوا التشريعات الحديثة، كما فعل محمد علي وسعيد إسماعيل. وصدر قانون حق الدولة في امتلاك الأراضي. وبدأ التحديث الإداري والعسكري والتعليمي اثر النظم الغربية، وعلى يد نخبة من خريجي المدارس والمعاهد العليا الجديدة. حدث ذلك في مصر، وفي سوريا في عصر محمد علي، ثم ظهر في تونس. وبدأت حركة للإحياء الثقافي للغة العربية والنثر والكتابة والشعر وإنشاء المدارس، خاصة دار العلوم، وبدأت حركة الترجمة والترجمة عند نصر الهوريني والطهطاوي. وجمع علي مبارك في خططه (الخطط التوفيقية) بين المصادر العربية والإفرنجية. وطور محمد عبده أدب المقالة. وبرزت الصحافة، خاصة السياسية مثل مجلة (روضة المدارس) لنشر العلوم والفنون. وأسست الجمعيات مثل جمعية المعارف (١٨٨٦م)، وساهم في نشر هذه العلوم والفنون باللغة العربية علماء سوريا والعراق، وتأسست دار العلوم، وساهمت في تطوير اللغة العربية. كما ساهمت المدارس المسيحية في سورية ولبنان قبل وصول الإرساليات الأجنبية في تطوير اللغة العربية الدينية.

وشارك في ذلك التيار الإسلامي على يد الأفغاني ومحمد عبده. ثم ظهرت فكرة الوطنية بفضل انتشار أفكار الثورة الفرنسية. ودافع عنها الطهطاوي (فليكن هذا الوطن لسعادتنا أجمعين، نبنيه بالحرية والفكر والمصنع). فالأخوة الوطنية مثل الأخوة الدينية. وسار على أثره محمد عبده وخير الدين التونسي. ووضع البستاني معجمه محيط المحيط. ومن الشعراء إبراهيم اليازجي الذي مجد الشعراء العرب والعروبة. وظهرت منشورات في مدن الشام تدعو إلى إنشاء مملكة عربية، منها ثلاثة: الأول يدعو إلى السيف والإصلاح وتحرير العرب من ظلم الترك. والثاني يعبر عن اليأس من الإصلاح على يد الأتراك بعد ان وعدوا به مرات عديدة. والثالث يخاطب أهل الوطن ويندد بالظلم التركي.

مجلة الفكر العربي المعاصر
العدد الثالث لسنة 2007

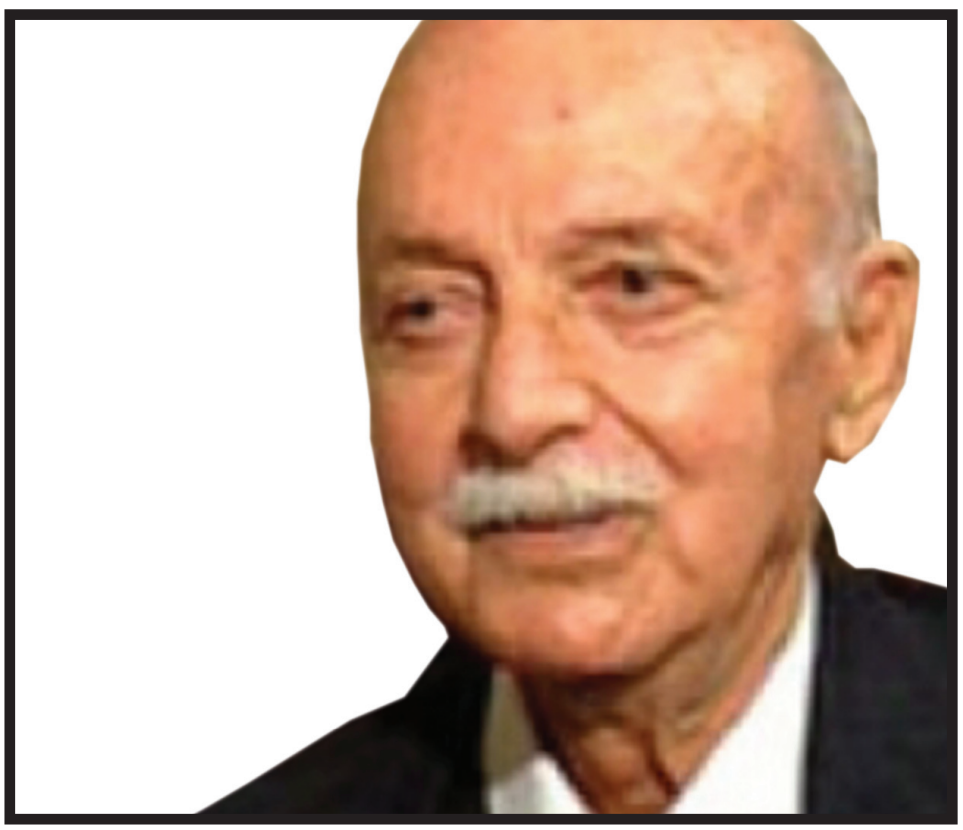

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (1970)
السنة الثامنة
الخميس (25)
تشرين الثاني 2010

العلامة عبدالعزيز الدوري ومنجزه

البحـث فـي نشـاة علـم التاريخ عنـد العرب

شكيب كاظم

كانـت بداية تعرفـي على الجهـد المعرفـي للدكتور عبـد العزيز الـدوري يوم قـرأت كتابـه (مقدمة في تاريـخ صـدر الاسـلام) الصـادر ضمن منشـورات مكتبـة المثنى ببغداد عام 1949 المكتبة التي طوح بهـا حريق مدمـر صبيحة العشـرين من آب/ 1999 لايخلو من اغراض مقصودة بعد ان طـوت الايام حياة صاحبهـا الاسـتاذ قاسـم محمد الرجب في الاول من نيسـان/1974 وهـو في بيروت، والكتاب هذا عبارة عن الآراء والملاحظات التي عرضـت للاسـتاذ الدكتور عبـد العزيز الـدوري اثناء المـدة التـي قـام فيهـا بتدريس التاريخ الاسلامي (بين شتاء 1943 وصيف 1949)

تناول فيه خطر الهوى على التاريخ العربي وضرورة تقسيم التاريخ الى ثقافي وسياسي واقتصادي واجتماعي كذلك إغفال المؤرخين العرب المتقدمين لاهمية العامل الزمني واخطاء النساخين في تشويه النص التاريخي من خلال الوقوع في التصحيف والتحريف فضلاً على وقوفه عند عهد الرسالة والخلافة الراشدة مما يحتاج كل بحث من هذه المباحث الى اكثر من وقفة كما أطلعت بشكل دقيق على كتابه (التكوين التاريخي للامة العربية. دراسة في الهوية والوعي) الصادر عن مركز دراسات الوحدة العربية بيروت بطبعته الاولى عام ١٩٨٤ اذ اعتمدت عليه في السنة التحضيرية لنيل درجة الماجستير من معهد التاريخ العربي للدراسات العليا. ان كتاب (بحث في نشاة علم التاريخ عند العرب) للعلاقة عبد العزيز الدوري كتاب رائد آخر يضاف الى سلسلة البحوث التاريخية الرصينة التي رفد بها الدوري مكتبة العرب التاريخية فضلاً عن مباحثه الرصينة المنشورة في المجلات الاكاديمية المتخصصة ومنها مجلة المجمع العلمي العراقي. انه كتاب فريد في بابه ومجال بحثه – والذي يقع في اربع مئة وثمان وثلاثين صفحة من القطع الكبير – اذ يتناول كما مثبت في العنوان نشأة علم التاريخ لدى العرب وتطوره خلال القرون الهجرية الثلاثة الاولى مشيراً الى ضرورة دراسة (تاريخ التاريخ) او تطور الكتابة التاريخية وما رافقها من مناهج وآراء واقفاً عند اوائل من كتبوا في هذا الباب او حدثوا وهم: عبيد بن شرية الجرهمي (ت ٦٥ هـ) وأبان بن عثمان بن عفان (ت. بين ٩٥ – ١٠٥ هـ) مثلثاً بعروة بن الزبير (ت ٩٤ هـ) وهو فقيه ومحدث مشهور، ذاكراً شراحبيل بن سعد (ت ١٢٣هـ) وعبد الله بن ابي بكر بن حزم (ت ١٣٠) – وهو غير ابن حزم الاندلسي وعاصم بن عمر ابن قتادة (ت ١٢٠) واقفاً وقفة طويلة عند ابي بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري (ت ١٢٤) وموسى بن عقبة (ت ١٤١) وابن اسحق (ت ١٥١ هـ) الذي قدم لنا اقدم سيرة تناولت حياة الرسول الاكرم – صلوات الله وسلامه عليه – وقد قسم هذه السيرة الى ثلاثة اقسام:

١- المبتدأ
٢- المبعث
٣- المغازي، او غزوات الرسول الاعظم وسراياه ولقد انتقدت سيرة ابن اسحق من قبل الباحثين المتخصصين ، كونه أدخل فيها الكثير من الاسرائيليات ، الناتجة عن مصاحبة ابن اسحق للعديد من الرواة من اهل الكتاب وبالتالي تأثيرهم فيه مما ظهر جليا في مروياته.

وإذ وقف الدكتور عبد العزيز الدوري المؤرخ الفيلسوف وقلة هم الذين يفلسفون حوادث التاريخ فكثير من المؤرخين ينقل الحوادث التاريخية كما هي او كما وصلت من خلال سلسلة الرواة او كما يعرف بالسند او الاسناد مستعيرين هذا المنهج منهج السند من دراسة الحديث النبوي الشريف الذي تأخر جمعه وتمحيصه الى قرن من الزمان من حياة الرسول الكريم اذ أن جمع الحديث النبوي الشريف حصل ايام الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز (٩٩ – ١٠١ هـ) وذلك لنهي الرسول عن كتابته خشية الاختلاط بالقرآن الكريم في ايام الكتابة الاولى تلك فانه يدرس في الفصل الثاني اصول مدرسة التاريخ في المدينة والتي يطلق عليها اسم (المغازي) كذلك وهي التي تتناول المعارك التي خاضها رسول الله من اجل نشر الدعوة الاسلامية واقفاً عند اهم معلمين من معالم هذه المدرسة التاريخية الرصينة وهما: عروة بن الزبير بن العوام الذي امضى العمر منشغلاً بالدرس والعلم بخلاف اخويه: عبد الله ومصعب اللذين شغلتهما السياسة والحرب مما هو معروف لمن درس التاريخ الاسلامي وكان من نتيجة ذلك انهما تمكنا من السيطرة على الجزيرة العربية والعراق لسنوات عديدة حتى ان الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان فكر ملياً بتحويل الحج من مكة المكرمة الى بيت المقدس لسيطرة عبد الله بن الزبير على الديار المقدسة بمكة ومن اجل تعزيز فكرته ونقلها الى الواقع فانه نسب الى ابن شهاب الزهري حديثاً يجيز الحج الى المسجد الاقصى!! ولم يستطع الى ذلك سبيلاً لتوجيه سهام النقد الى الحديث المنسوب والشك فيه لان الزهري لم يشتهر في ذلك الوقت ٧٢ – ٧٣ للهجرة اذ كان شاباً وفي بدايات درسه العلوم والتاريخ والحديث وعروة بن الزبير القائل: امنيتي الزهد في الدنيا والفوز في الآخرة، وان اكون ممن يروى عنهم العلم ولقد روى ابن هشام (ت ٢١٨) وصاحب السيرة المعروفة باسمه (سيرة ابن هشام) وهي عبارة عن تشذيب وتهذيب لسيرة ابن اسحق عنه بانه (كان يصوم الدهر كله الايوم الفطر ويوم النحر ومات وهو صائم). ثم يقف العلامة عبد العزيز الدوري عند ابي بكر محمد بن شهاب الزهري ثاني اثنين من اعلام مدرسة المدينة التاريخية وواضع اللبنات الاولى لها واذا كان عروة بن الزبير رائد علم التاريخ فان الزهري – كما يقول الدكتور الدوري – اسس المدرسة التاريخية في المدينة. واذ درسها فانه يثني بدراسة ضافية وممتعة لاصول مدرسة التاريخ في العراق، والعراق سباق في كل حقل وميدان ونشأتها وتطورها واقفاً عند اتجاهين تركاً بصماتهما الواضحة علي الدرس التاريخي هما: اتجاه اهل الحديث الذي نقل اصول دراسة الحديث النبوي الشريف الى الدراسة التاريخية مؤكداً السند في نقل الرواية. والاتجاه القبلي الذي جاء نتيجة الاهتمام بالشؤون القبلية وفعالياتها ولايخلو الامر من تفاخر قبلي ازاء نزعات التهوين من شأن العرب وكان هذا الاتجاه استمراراً للقصص وأيام العرب في الجاهلية حيث حفظ لنا الرواة من خلالها الكثير من الحوادث والامور التي سبقت ظهور الاسلام مما هو مثبوث ومدون في الكثير من المصادر والمظان. ما أعجبني في هذا الكتاب انه مجموعة كتب في كتاب واحد مظان عدة ومصادر ومراجع يقدمها فيلسوف التاريخ الدكتور عبد العزيز الدوري بين يدي القارئ كافيه مؤونة البحث والتنقيب عنها وهي ليست في متناول كل احد، فبعد ان قدم لنا دراسة رصينة ورحبة – شأن كل كتبه – في نشأة علم التاريخ عند العرب فانه يقدم لنا مقتبسات مطولة من كتب التاريخ ومصادره الاولى المتقدمة: ١- مثل قطعة من مغازي وهب بن منبه (ت ١١٠ – ١١٤ هـ) الذي يعد من أوائل من كتب في هذا المجال وكذلك كتاباته كما وردت في طبقات ابن سعد وتاريخ ابي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠) الموسوم بـ(تاريخ الرسل والملوك) وكتاب (التيجان في ملوك حمير واليمن) لابن هشام تحقيق (ن.ف.كرنكو) طبعة حيدر اباد الدكن ١٣٤٧ وكتاب (حلية الاولياء) لابي نعيم الاصفهاني. ٢- كذلك مرويات عروة بن الزبير التاريخية المبثوثة في الطبقات الكبري لابن سعد او كما دونها الطبري. ٣- وبعض من كتابات الزهري كما وردت في طبقات ابن سعد وسيرة أبن هشام وكتاب (أنساب الاشراف) للبلاذري. ٤- فضلاً علي مرويات (موسى بن عقبة) التي وردت في كتاب (البداية والنهاية) لابن كثير وتاريخ الطبري. ٥- وروايات محمد ابن اسحق الواردة في كتاب (البدء والتاريخ) لمطهر بن طاهر المقدسي ، وكتاب (الاكليل) للهمداني ، وسيرة ابن هشام وتأريخ الطبري. ٦- وكذلك مارواه محمد بن عمر الواقدي (١٣٠ – ٢٠٧) في كتابه (المغازي) أو مارواه عنه الطبري في تأريخه ، وكذلك البلاذري في (أنساب الاشراف). ٧- فضلاً عن مرويات ابن سعد (ت ٢٣٠ هجرية) في كتابه ذائع الصيت (الطبقات الكبرى). ٨- ومادونه ابو مخنف لوط الازدي (ت١٥٧) الوارد بعض هذا الذي دونه في تأريخ الطبري ، او ما ورد منه في كتابي (فتوح البلدان) و (أنساب الاشراف) للبلاذري. ٩- ومرويات عوانة بن الحكم (ت ، ١٤٧) المنبثة في كتاب (انساب الاشراف) للبلاذري، وكذلك تأريخ الطبري. ١٠- واقوال سيف بن عمر (ت ١٨٠)التي ذكرها الطبري في تأريخه. ١١- ونصر بن

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1970)
السنة الثامنة
الخميس (25)
تشرين الثاني 2010

الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري: المربي والإنسان، كما عرفته

عبد الكريم خليفة

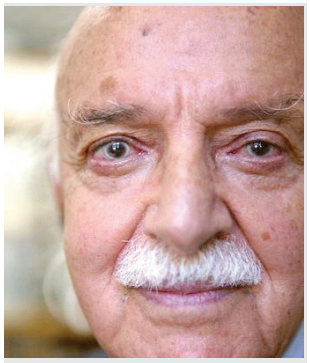

لقد عرفت عبد العزيز الدوري، أستاذاً وهو في مقتبل العمر في دار المعلمين العالية، ببغداد، فكنت احد طلبة الفصل مع أقراني العراقيين، وكان عددنا لا يتجاوز ثمانية عشر طالباً وطالبة

ترددت كثيراً في كتابة هذه السطور، التي يسمونها (شهادة)، فقد وقر في أعماق طبعي ان لا أتحدث عن الأحياء، وقد ازداد الأمر صعوبة عندما طلب إلي من أحب ان أرد له طلباً، لاسيما وموضوع الشهادة عالم كبير وجامعي معطاء وفيلسوف قومي، صعب المراس، وبعيد المرمى، وعميق المقاصد، وإذا ما فسح الله بالأجل، فان دراسة الفكر الفلسفي عند هذا المؤرخ الفيلسوف، طالما راودتني.

لقد عرفت عبد العزيز الدوري، أستاذاً وهو في مقتبل العمر في دار المعلمين العالية، ببغداد، فكنت احد طلبة الفصل مع أقراني العراقيين، وكان عددنا لا يتجاوز ثمانية عشر طالباً وطالبة، ولم يكن هذا الأمر يعني لي شيئاً، ولا يمر بخاطري. وفي صبيحة يوم من أيام خريف بغداد عام ١٩٤٤، دخل الفصل أستاذ شاب وسيم الخلقة، ورأسه اقرب إلى الصلع، وحمرة وجهه تضفي عليه صورة القادم من بلاد الانكليز، أو هكذا كانت الصورة في مخيلتي!! وسرعان ما انتقل الحال إلى الحقيقة المهيبة تتجلى بشخصية هذا المربي الجاد، يدخل بنا إلى (العصر العباسي)، مادة التاريخ المقررة في قسم اللغة العربية في السنة الثالثة عام ١٩٤٤-١٩٤٥. وقد شعرنا، منذ البداية، بإننا أمام مادة جديدة، وعلم جديد! ومنهج في البحث التاريخي والأدبي، لم يكن لنا به دراية أو دربة. فقد درسنا التاريخ الأموي في السنة السابقة على أستاذ فاضل، رحمه الله، وقد تجاوز الكهولة من العمر، يرفع شعار (التاريخ أدب)، ويقولها بالانكليزية! إذ كان من خريجي بريطانيا في ثلاثينيات ذلك القرن، وكان المعيار عنده –رحمه الله– فخامة الأسلوب وسرد القصص والروايات والأخبار، مما له علاقة بالموضوع، وكان يستوي فيه القرب والبعد، بل والخروج عن الموضوع. لقد أدركت منذ الساعات الأولى في حصص (التاريخ العباسي)، إنني أمام منهج جديد في التاريخ، وأسلوب جديد في الدراسة والبحث... فنقف أمام قضايا من التاريخ الإسلامي، لاسيما قضايا (الشعوبية) (ونشوء الفرق) ودراسة مبادئها، وعوامل نشوئها وتطورها، وتحليل العوامل الاقتصادية والاجتماعية التي تكمن وراءها، قبل ان تتفجر إلى ثورات سياسية وعسكرية تهدد دار السلام، عاصمة الخلافة العباسية.ولأول مرة، نجد أنفسنا نؤم مكتبة دار المعلمين العالية، للتنقيب والبحث في المصادر وكتابة البحوث، وكان هذا الأستاذ العالم الجاد، يقرأ كل بحث، ويصححه، ويعلق عليه بلغة صحيحة وموجزة، وقد اكتسب خطه سمة خاصة صاحبته حتى يومنا هذا، أطال الله بعمره، وعافاه. كانت تلك السنة الجامعية، تشكل انعطافاً في حياتي العلمية... وكان (الدوري) كما كنا نسميه إلى جانب الجدية في الدرس، والدقة في البحث، والنزاهة في التعامل، يعنى بطلابه وبأحوالهم. واذكر انني في احد الأيام التقيت به في الطريق المؤدي إلى الكلية، وكنت أشكو من التهاب في العين، فلاحظ ذلك، وسألني عن هذا الحال، واذكر انني أجبته، ان هذا عارض، ربما كان من كثرة الدرس.. فأجاب، ما هذا!؟ وهل أنت بصدد كتابة تفسير! ونصحني ان اذهب على التو إلى طبيب مشهور متخصص بالعيون، ببغداد، في شارع الرشيد... فذهبت مباشرة، إلى ذلك الطبيب... وكان الأمر على محمل الجد... وعالجني ذلك الطبيب.

لقد ترك أ.(الدوري) أجمل الأثر في نفسي، علمياً وإنسانياً، واذكر انني عندما أنهيت الدراسة في السنة الرابعة، وبدأت أتأهب للعودة إلى الأردن، وكان من بين الأساتذة القلائل الذين شعرت بالواجب ان أودعهم، اعترافاً بالفضل واعتزازاً بعلمهم وفضلهم. ومرت السنون، وتعاقبت الأحداث، وشابتها المرارة والحلاوة، وللحق أقول: كانت المرارة هي الطاغية، لاسيما على الأجواء السياسية والانقلابات المذهلة، والصراعات المريرة التي كانت تتفجر تحت أقنعة مختلفة، لاسيما العقائدية والحزبية. وفي صبيحة احد الأيام من ١٩٦٨، وكنت رئيساً للجامعة الأردنية، دخل علي احد الزملاء، وقال: علمت بان الأستاذ الدوري قد غادر بغداد نهائياً إلى بيروت. ودار في خلدي، فيما إذا كان العالم الكبير، يقبل ان يأتي إلى الجامعة الأردنية، ولما يمض على إنشائها أكثر من خمس سنوات! فرأيت من باب الأدب ان أوجه إليه الدعوة لزيارة الجامعة الأردنية لمدة أسبوع، إذ كان مرتبطاً بمحاضرات في الجامعة الأميركية في بيروت، في ذلك الوقت، وحدثت نفسي بان زيارته للجامعة الأردنية، بموقعها الجميل، وبآمالنا الكبيرة في تطويرها وتكاملها، وإرسائها على قواعد وتقاليد جامعية أصيلة، ربما يكون عاملاً مرجحاً لقبوله ان يكون أستاذاً في قسم التاريخ، وكان هذا القسم يضم نخبة من الأساتذة والكفاءات العلمية المتميزة من الأقطار العربية، وعلى رأس القسم زميلنا أ.د.عبد الكريم غرايبة –أطال الله عمره– وهو يكن في أعماق نفسه الاحترام والتقدير للدكتور عبد العزيز الدوري. وقد حدث ما توخيناه، إذ لبى الدكتور الدوري دعوتنا، فزار الجامعة الأردنية، الناشئة اذ ذاك، والتقت جميع الظروف الحسنة مع حسن الطالع، وقبل الأستاذ الدوري العرض، بأن يكون أستاذاً في قسم التاريخ في الجامعة الأردنية، ثم عاد إلى بيروت حيث أنهى ارتباطاته، وعاد إلينا ليلتحق بالجامعة الأردنية. وكان من حسن حظ هذه الجامعة الفتية، وهي في طور الإنشاء، ان ينضم إليها عالم كبير وجامعي تعرفه اعرق الجامعات، في بريطانيا وأميركا وغيرها، فشارك بعلمه المتميز وخبرته الجامعية الفنية، بتطوير الجامعة الأردنية منذ نشوئها، وهو مستمر فيها حتى الآن أستاذاً متميزاً، عافاه الله ومتعه بالصحة والعافية.

إنني أعلم، يقيناً، ان أ.د.عبد العزيز الدوري، منذ انضمامه إلى الجامعة الأردنية، قد عرض عليه العمل في كثير من الجامعات المشهورة في الولايات المتحدة الأميركية وغيرها، مصحوباً بالإغراءات المادية والمعنوية، ولكنه، حفظه الله، قد فضل البقاء في الجامعة الأردنية، والانتساب إليها في جميع الأحوال والظروف، واقتصر على زيارة تلك الجامعات، لفترات زمنية قصيرة، باسم (أستاذ زائر)، ثم يعود إلى الأردن. وقد جعل من الأردن وطنه الروحي إلى جانب العراق الغالي، الذي يعيش همومه، وتتجذر هموم الأمة العربية في أعماق هذا المؤرخ الفيلسوف العربي.

وفي هذه الكلمة العجلى، لابد من ان اذكر (الأستاذ الدوري) المجمعي، الذي يرى ان اللغة العربية، هي التي تعطي لامتنا العربية هويتها، فكان عضو الشرف في مجمع اللغة العربية الأردني، منذ تأسيسه عام ١٩٧٦. وكانت آراء (أبي زيد)، الأستاذ الدوري، وخبراته المجمعية والجامعية، عاملاً أساسياً في إنشاء المجمع، وتطويره وارتقائه ومشاركته في كثير من الأعمال العلمية والمجمعية، لاسيما في مجال تحقيق التراث. فقد اشرف أ.الدوري على تحقيق كتاب (المقنع في الفلاحة) لابن حجاج الاشبيلي الأندلسي، ونشره مجمع اللغة العربية الأردني عام ١٩٨٢، وكان مقرر لجنة التراث في المجمع، وأغنى ببحوثه العلمية مجلة المجمع ومواسمه الثقافية، وكانت لآرائه النيرة الصدارة في مجلس المجمع، واشهد انه كان دائم الحضور إلى مجلس المجمع، وفعالياته العلمية والثقافية، ولم يكن ليحول بينه وبين ذلك الا سبب قاهر.

رئيس المجلس العلمي الاردني الكلمة القيت في تكريم الدوري عام 2007

مزاحم المنقري (ت ٢١٢هـ) ومروياته في كتابه (صفين) والذي قام بنشره المرحوم عبد السلام هرون سنة ١٣٦٥ هـ، ونصر هذا علوي الهوى والتوجه. ١٢- وماذكره علي بن محمد بن عبد الله بن أبي السيف المدائي (١٣٥ - ٢٢٥ هـ) مما هو مروي في كتاب (فتوح البلدان) للبلاذري وتأريخ الطبري. ١٣- روايات هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت ٢٠٤) عن ابيه (ت١٤٦) ومماهو مذكور في الطبقات الكبرى لابن سعد ، وتأريخ الطبري ، او مما هو مدون في كتابه (الاصنام) طبعة لايبزج عام١٩٤١. ١٤- فضلاً على مارواه مصعب بن عبد الله الزبيري (ت ٢٣٣ - ٢٣٦) في كتابه (نسب قريش) الذي قام بتحقيقه المتشرق ليفي بروفنسال. ١٥- تزاد علي ذلك منقولات الهيثم بن عدي الطائي (ت ٢٠٦) المتفرقة في كتابي (فتوح البلدان) و (انساب الاشراف) للبلاذري ، وكذلك تأريخ الطبري. ١٦- غير ناسين معمربن المثنى (ابو عبيدة) (١١٠ - ٢١١) الذي عرف بمروياته الكارهة للعرب ، حيث ينقل لنا حديث (يوم الكلاب) الوارد في كتابه (النقائض) ، نقائض جرير والفرزدق ، وحديثه عن واقعة (ذو قار) أو اخباره عن عبيد الله بن زياد بن أبيه (أبي سفيان) الواردة في كتاب (انساب الاشراف) للبلاذري. ١٧- ويجب ان لاننسى حديث احمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩) عن الفتنة الواردة في كتابه (أنساب الاشراف) أو حديثه عن فتح مدينة دمشق واراضيها سنة ١٤هـ مماهو وارد في كتابه (فتوح البلدان) على يد خالد بن الوليد المخزومي ، دون قتال الذي كتب لهم كتاباً هذا نصه :(بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ماأعطى خالد بن الوليد أهل دمشق ، إذا دخلها أعطاهم أماناً علي انفسهم واموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لايهدم ، ولايسكن شيء من دورهم ، لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله – صلى الله عليه وسلم – والخلفاء والمؤمنين ، لايعرف لهم (لايعرض؟) إلا بخير اذا اعطوا الجزية) مما يظهر سماحة الاسلام ، ورحابة صدره ازاء الديانات الاخرى والتعايش معها دون احقاد وضغائن ولا أعتقد ان اليهود ، عاشوا عهداً من الحرية الدينية والتسامح وتقلد الوظائف العالية والمناصب ، مثلما عاشوه في اكناف المسلمين في بلاد الاندلس حتى اذا سقطت الدويلات الاندلسية ، دويلات الطوائف ، وآخرها (غرناطة) بيد المتعصبين والغلاة ، اضطهد اليهود وتفرقوا وحطوا الرحال – غالباً – في اصقاع الدونمة في تركيا ، وقلبوا ظهر المجن للعرب والمسلمين ، من خلال افكار جماعة الاتحاد والترقي التي قادت الانقلاب ضد السلطان العثماني عبد الحميد ١٩٠٨ والتي قادت الدولة العثمانية الى الكارثة كارثة الحرب مع المانيا ضد الحلفاء مما هو معروف للدارسين والباحثين. ١٨- ثم نقرأ في الكتاب مرويات اليعقوبي (ت ٢٨٤) في كتابه (التأريخ) والمعروف لدى الدارسين بتأريخ اليعقوبي ، وفيه حديث عن تأريخ العالم قبل الميلاد – شأنه شأن اغلب المؤرخين المسلمين ، المسعودي مثلاً – وللتأريخ الاسلامي حتى سنة ٢٥٩ ، وصولاً الى أيام أحمد المعتمد علي الله بن جعفر المتوكل. ثم ينقل لنا العلامة الدكتور عبد العزيز الدوري – الذي ماعرف العراق حقه وفضله وعلمه ، شأنه مع الكثيرين ، قدموا خلاصة عقولهم لآخرين ، وما احراهم أن يقدموها لبلدهم! ١٩- نقولات ابن قتيبة أبي محمد عبد الله بن مسلم الكاتب (ت ٢٧٠) في كتابه (المعارف). ٢٠- وأبي حنيفة الدينوري في كتابه (الاخبار الطوال) والمتوفى سنة (٢٨٢) وأخيراً نصل الى الطبري في كتابه التأريخي الكبير والرائد (تأريخ الرسل والملوك). ان كتاب (بحث في نشأة علم التأريخ عند العرب) للعلامة الكبير الاستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري ، يضع بين يدي القارئ نماذج منتقاة ومصفاة من هذه الكتب التأريخية التي ذكرتها آنفاً ، التي هي بمثابة الكتابات التأريخية العربية الأولى . إنه كتب في كتاب وكتاب يضم كتباً أتحف به الدكتور الدوري مكتبة التأريخ العربي الاسلامي ليضاف الى كتبه الاخرى والتي زينت هذه المكتبة مثل :(تأريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري) و(دراسات في العصور العباسية المتأخرة) و (العصر العباسي الأول : دراسة في التأريخ السياسي والاداري والمالي) و (مقدمة في التأريخ الاقتصادي العربي) و (النظم الاسلامية :الخلافة ، الضرائب ، الدواوين والوزارة) وليقف في مقدمة من وضع اللبنات الاولى لمدرسة العراق التأريخية الحديثة ، الى جانب بقية الرعيل من هذه المدرسة : الدكتور صالح أحمد العلي ، الدكتور حسين أمين ، سعيد الديوجي ، الدكتور ناجي معروف ، الدكتور بشار عواد معروف ، الدكتور عبد الجبار ناجي والدكتور خالد العسلي ، والدكتور نافع توفيق عبود ، والدكتور كمال مظهر أحمد والدكتور سيار الجميل. والدكتور جواد علي وحامد البازي.

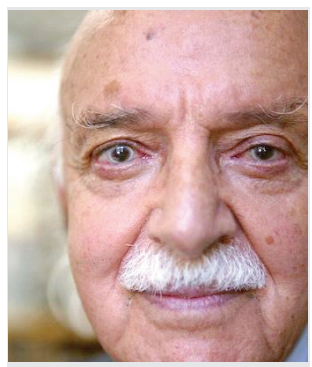

ان كتاب (بحث في نشأة علم التأريخ عند العرب) للعلامة الكبير الاستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري ، يضع بين يدي القارئ نماذج منتقاة ومصفاة من هذه الكتب التأريخية التي ذكرتها آنفاً ، التي هي بمثابة الكتابات التأريخية العربية الأولى .

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (1970)
السنة الثامنة
الخميس (25)
تشرين الثاني 2010

عبد العزيز الدوري

وريادة المدرسة التاريخية العربية المعاصرة

ا. د. ابراهيم خليل العلاف

أجاب احد النقاد قبل سنوات على سؤال يتعلق بأهم ما أنجزه العرب في التاريخ المعاصر وطوال القرن العشرين قائلا : إنهم قدموا إنجازات في تطوير علم التاريخ من قبل مؤرخين عراقيين مشهورين هما الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري ، والأستاذ الدكتور صالح أحمد العلي . والدكتور الدوري مؤرخ متميز ومرب فاضل وإداري وقيادي جامعي من الطراز الأول . رأس جامعة بغداد ردحاً من الزمن ، فكان له دور فاعل في تطويرها ووضعها في مكان لائق بين جامعات العالم .

الدوري علم من أعلام التاريخ الإسلامي ، وصاحب مدرسة تتميز بالدقة والعمق وسعة الموضوع، والاهم من ذلك هو تركيزه في دراساته على (العوامل الاقتصادية) في فهم حركة التاريخ والمجتمع .

ولد الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري في بغداد سنة ١٩٠٨، وبعد أن أكمل دراسته الثانوية ، حصل على بعثة علمية في المملكة المتحدة ، فسافر إلى لندن ونال شهادة البكالوريوس من جامعتها سنة ١٩٤٠، واستمر في دراسته وحصل على شهادة الدكتوراه سنة ١٩٤٢ ولما عاد إلى بغداد عين مدرسا للتاريخ الإسلامي في دار المعلمين العالية (كلية التربية حاليا) في بغداد . وقد بقي فيها حتى رقي إلى مرتبة أستاذ .

أصبح رئيسا لدائرة التاريخ في جامعة بغداد ، فعميدا لكلية الآداب والعلوم من ١٩٤٩ . ١٩٥٨ ورئيسا لجامعة بغداد ١٩٦٢ . ١٩٦٦ .

ولم تقتصر جهود الأستاذ الدكتور الدوري العلمية على بلاده ، العراق ، إنما عمل أستاذا زائرا في جامعة لندن بين سنتي ١٩٥٥ . ١٩٥٦ وأستاذا زائرا في الجامعة الأمريكية في بيروت ١٩٥٩ . ١٩٦٠ واستقر أخيرا أستاذا للتاريخ في الجامعة الأردنية بعمان .

للدكتور الدوري مؤلفات عديدة طبع الكثير منها طبعات كثيرة منها :

١ . العصر العباسي الأول (بغداد ١٩٤٣)

٢ . دراسات في العصور العباسية المتأخرة (بغداد ، ١٩٤٥)

٣ . مقدمة في تاريخ صدر الإسلام (بغداد ، ١٩٥٠)

٤ . تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري (بغداد ، ١٩٤٨)

٥ . النظم الإسلامية (بغداد ، ١٩٥٠)

٦ . دراسات في علم التاريخ عند العرب ، (بيروت ، ١٩٦٠)

٧ . الجذور التاريخية للقومية العربية ، (بيروت ، ١٩٦٠)

٨ . تفسير التاريخ مع آخرين ، (بغداد ، لا .ت)

٩ . التكوين التاريخي للأمة العربية : دراسة في الهوية والوعي (بيروت ، ١٩٨٤)

١٠ . الجذور التاريخية للشعوبية ، ط١ ، (بيروت ، ١٩٦٢) وط٢ (بيروت ، ١٩٨٠)

١١ . ناصر الدين الأسد بين التراث والمعاصرة ، (بيروت ، ٢٠٠٢)

١٢ . نشأة علم التاريخ عند العرب (طبعة جديدة ، ٢٠٠٥)

كما أن له إسهامات فاعلة في كتابة التاريخ الموسوعي العالمي .. ومن ذلك انه كتب مواد عديدة في موسوعات عالمية منها مثلا: (دائرة المعارف الإسلامية) منها مواد (بغداد) ، (الانبار) ، (امير) ، (ديوان) ، (عامل) ، وغيرها . كما كلف من قبل منظمة التربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) ، لتحرير مشروع كتاب عام يتناول (تاريخ الامة العربية) والمشروع لم يستكمل بعد .

يعتمد منهج الدوري في تدوين التاريخ على الرجوع إلى المصادر الأصلية ومحاكمتها محاكمة منطقية ، واستخلاص الحقائق التاريخية منها . لذلك اتسمت كتاباته بالدقة والعمق . وقد اهتم بالتاريخ الاقتصادي منذ بواكير حياته العملية وهو يرى بان موضوع التاريخ ، موضوع حي ، ولذلك ينتظر أن تختلف الآراء حول مفهومه ، وأسلوب كتابته وتفسيره، فضلا عن انه موضوع يتصل بصورة وثيقة بالاتجاهات الفكرية والتطورات العامة ، فيتأثر بها وقد يكون له أثره في بعضها . ويؤكد بان ثمة صلة بين المؤرخ وحقائق التاريخ ، فالمؤرخ دون حقائق لا جذور له والحقائق دون مؤرخ مجردة من الحياة والمعنى .

ويقول الدكتور الدوري ان المؤرخين العرب القدامى قدموا تفاسير عديدة للتاريخ العربي وللتاريخ البشري كله ، فهناك من رأى بان التاريخ تعبير عن (المشيئة الإلهية) المتمثلة بتوالي الرسالات . وهناك من قال ان التاريخ تعبير عن دور (النخبة) . وفسر آخرون التاريخ تفسيرا أخلاقيا ، وأخيرا جاء عبد الرحمن بن خلدون في القرن الرابع عشر الميلادي ليفسر التاريخ تفسيرا حضاريا اجتماعيا . ويضيف الدوري الى ذك قوله ان (التفسير الاقتصادي) لايعني بالضرورة (التفسير المادي) . ومع انه كان يدرك بان البعض من المؤرخين ذهبوا في كتاباتهم الى التركيز على (الوعي القومي) و(النزعة القومية) وحتى هو نفسه اتهم بذلك الا انه في نهاية الامر لايحبذ الالتزام بـ (فلسفة تاريخية معينة وتطبيقها على التاريخ) .

فالفلسفات التاريخية ، برأيه ، رهينة بظروف نشأتها وقد يؤدي تطبيقها الى قسر التاريخ ليماشيها والى إخراجه عن نطاقه ، فنحن ، يقول الدوري ، ((حين ندرس تاريخنا نريد فهمه وبالتالي تكوين فكرة واضحة عن جذور حاضرنا ، وفهم امكاناتنا وتقدير دورنا في سير البشرية)) . ان مثل تلك الدراسة تتطلب ، لتكون جدية ، توفر عناصر عديدة ، منها ان لا تكون دراسة خارجية أي من قبل أناس من خارج المجتمع العربي ، وان ندرس تاريخنا بروح النقد والتفهم في أن واحد ، ومعنى هذا انه لا يريد إضفاء القدسية على هذا التاريخ فهو تاريخ بشر . وأخيرا يؤكد الأستاذ الدوري ، على ان التاريخ العربي عج بالتيارات والاتجاهات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والنفسية وقد مر بفترات توثب وفترات ركود .

لقد تمتع الأستاذ الدوري بمكانة متميزة ، حتى انه لقب بـ (شيخ المؤرخين العرب) . كما نال الكثير من التكريم وقد قال عنه المؤرخ البريطاني والمتخصص بتاريخ الشرق الأوسط ، برنارد لويس ((انه أي الدوري أصبح حجة في موضوعه .. بل هو نفسه قد غدا وثيقة تاريخية)) .

لم يكن الدكتور الدوري ، وما يزال ، بعيدا عن النشاطات الثقافية والسياسية والفكرية العربية ، بل كان يشارك فيها باحثا ومناقشا ومحاورا وقد عرف عنه انه لايتعصب لرأي حتى انه وعد في السنوات الاخيرة ومن خلال مؤتمر عالمي حضره ، انه سيعيد النظر في موقفه من الحركة الشعوبية .. وحتى

يقول الدكتور الدوري ان المؤرخين العرب القدامى قدموا تفاسير عديدة للتاريخ العربي وللتاريخ البشري كله ، فهناك من رأى بان التاريخ تعبير عن (المشيئة الإلهية) المتمثلة بتوالي الرسالات . وهناك من قال ان التاريخ تعبير عن دور (النخبة) .

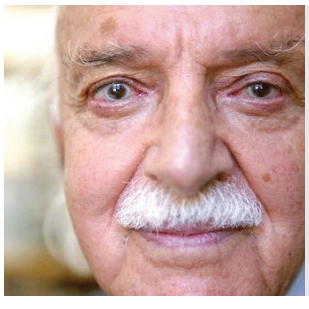

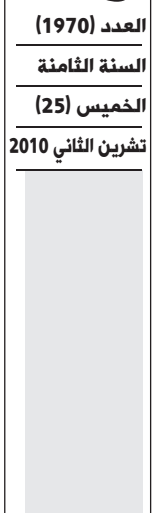

دراساته ذات الطابع القومي فانها اتسمت بالبعد الانساني فكان يركز على المنجزات العلمية للعرب على المستوى الانساني.

لقد كان الدوري في كل كتاباته يؤكد بان تاريخ الأمة العربية كل متصل مترابط ، يكون سلسلة حلقات يؤدي بعضها إلى بعض .. أما حاضر الأمة فهو نتاج سيرها التاريخي وبداية طريقها إلى المستقبل ، ولذا فلا انقطاع في التاريخ ولا ظاهرة تبدو فيه دون جذور وتمهيد . كما أن الاتصال في تاريخ الأمة لايعني ان التاريخ حركة رتيبة ، أو أن الأمة سارت بالخطوات نفسها خلال تاريخها ، بل أن فيها فترات تزخر بالحيوية والتوثب، وأخرى تتصف بالحركة التدريجية والتطور الهادئ . ولكل امة فتراتها الثورية ، هي في الواقع انطلاق صاخب لقوى تجمعت خلال فترات من الكبت أو من التطور السريع الواسع او هي تعبير عن غليان داخلي انفجر في ثورة صاخبة ، وقد تكون لهذه الفترات آثارها البعيدة في الفترات التي تعقبها او في فترات تالية . ومن هنا تتباين فترات تاريخ الامة في مسيرتها عبر العصور ، فقد يكون اثر فترة بعيدة أقوى في حاضر الأمة من فترة قريبة من هذا الحاضر ..

وحول التطور التاريخي للأمة العربية ، يرى الدكتور الدوري ان ثمة عناصر او عوامل أسهمت في هذا التطور منها:

١ . الحركة الإسلامية
٢ . خروج العرب بالفتوح وانتشارهم
٣ . تكوين الثقافة العربية
٤ . التحولات الاجتماعية والاقتصادية وأثرها في التكوين
٥ . مشكلة السلطة والصراع السياسي والفكري
٦ . ظهور مفهوم الأمة العربية في الإطار الثقافي كنتيجة لتشابك العناصر المذكورة ويؤكد الدكتور الدوري بان ((العروبة والإسلام كانا مصدر الحركة والحيوية في تاريخ

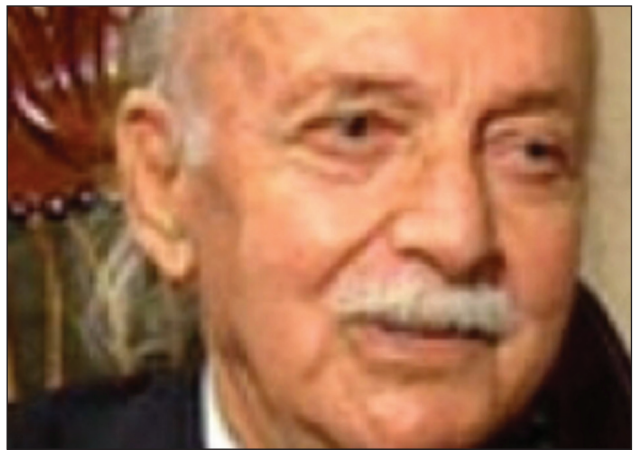

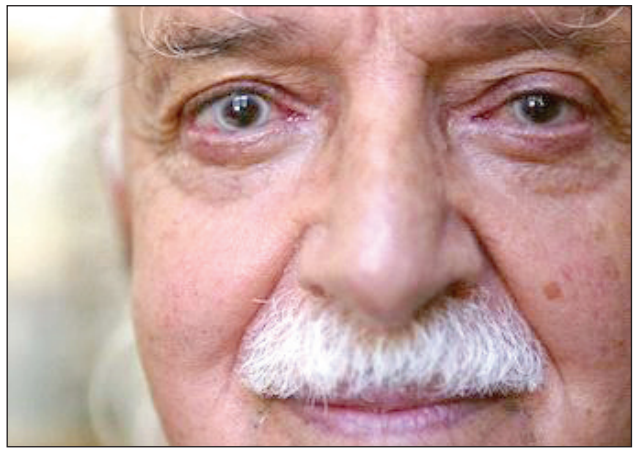

المجتمعات العربية الإسلامية)) .

يظل الأستاذ الدكتور الدوري ، بحق ، رائدا من رواد التحليل التاريخي . الاجتماعي كما يقول الدكتور غانم الرميحي . ندعو من الله عز وجل ان يمد بعمر أستاذنا الدوري ويوفقه لاستكمال رسالته التاريخية والتربوية خدمة للعراق وللأمة العربية وللإنسانية جمعاء وحسنا فعل مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت عندما أقدم على إصدار الأعمال الكاملة للدكتور الدوري، ففي ذلك فائدة كبيرة لحركة التاريخ والمؤرخين . كما ان من المناسب الإشارة إلى أن منتدى عبد الحميد شومان في عمان بالأردن قد أقام ندوة موسعة تكريما للأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري سنة ١٩٩٩ باعتباره ((يعد بحق من ابرز الذين وضعوا الأسس الحديثة لإعادة قراءة التاريخ العربي بمنظور جديد)) . وقد قام الدكتور احسان عباس بجمع وتحرير البحوث التي ألقيت في تلك الندوة ثم اقدمت المؤسسة العربية للدراسات والنشر (٢٠٠٠) ببيروت على نشرها بعنوان : ((عبد العزيز الدوري : إنسانا ومؤرخا ومفكرا)) .

ومن البحوث التي ضمها الكتاب، بحث المرحوم الأستاذ الدكتور صالح احمد العلي الموسوم : ((الدكتور عبد العزيز الدوري : سجاياه الأصلية وعمله)) وبحث الأستاذ الدكتور فاروق عمر فوزي الموسوم : ((محاورة منهجية حول مساهمة الدوري في تفسير التاريخ العربي الإسلامي في ضوء التفاسير التاريخية ، وبحث الدكتور مسعود ضاهر الموسوم : ((مساهمة الدوري في تطوير الفكرة العربية)) .

وقد اختتم الدكتور الدوري الاحتفالية التكريمية له بكلمة مهمة وقيمة تعكس رؤاه التاريخية أكد فيها ((ان كتابة التاريخ لا يمكن أن تكون خارج سياق تيارات الحاضر وهمومه ، وهذا يصدق على التاريخ الإسلامي وكتابة التاريخ الحديث ، فتلميذ التاريخ ابن بيئته في الأساس ينطلق من الماضي إلى الحاضر وبالعكس ، ويختار موضوعاته ويفسر مشاكله بمفاهيم عصره)) .

وفي يوم الجمعة ١٥ كانون الأول ٢٠٠٠ منحت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم جائزتها التقديرية للثقافة العربية للدورة ٢٠٠٠ للمؤرخ الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري نظرا ((لجهوده في دراسة الفكر القومي وجذوره التاريخية ولتأكيده إبراز علاقات الشعوب العربية بالأمم والشعوب والثقافات الإسلامية ، ولاهتمامه بدراسة النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الحضارة العربية والإسلامية)) . وقد ألقيت في احتفال التكريم الذي تم في بيروت كلمات منها كلمة الدكتور خير الدين حسيب مدير عام مركز دراسات الوحدة العربية قال فيها : ان الدوري (٨١) عاما هو نموذج رائع للعلم الملتزم الذي يخدم المبدأ ولا يستخدمه .. العلم الذي ينفع الناس فيمكث في الأرض لا العلم الذي يفيد صاحبه فيمكن أن يذهب جفاء ،و يعد الدوري أنموذجا للعالم الذي يهب نفسه لخدمة قيم إنسانية ومثل عليا ، فضلا عن أن يجعل العلم باستمرار في خدمة المجتمع.

أطال الله في عمر الدوري ومتعه بالصحة والعافية

عبد العزيز الدوري: شهادة

حليم بركات

لا اعرف محاولة واحدة لتحديد الهوية العربية لم تدخل اللغة العربية في صلب هذا التحديد، رغم الاختلاف حول بقية عوامل الوحدة والتجزئة. لقد اتفق جميع منظري القومية العربية على ان اللغة تشكل العنصر الرئيسي الأهم في تحديد الهوية العربية، وان اختلفوا حول العناصر الأخرى وطبيعة العلاقات بين هذه العناصر. من هنا اعتبر عبد العزيز الدوري ان اللغة هي التي شكلت، تاريخياً، القاسم المشترك الأول الذي أدى إلى بدايات الوعي العربي، وذلك حتى قبل ظهور الإسلام. ومن هنا اعتباره الهوية العربية شأناً حضارياً ثقافياً وليس شأناً عنصرياً أو إقليمياً أو دينياً.

يعتبر عبد العزيز الدوري ان الإسلام وحد العرب وحملهم رسالة وأعطاهم قاعدة فكرية أيديولوجية، وبه كونوا دولة، وأضاف من ناحية أخرى، ان الحركة الإسلامية جاءت عربية في بيئتها وفي القائمين بها، فتوصل إلى انه لم يكن من الغريب ان يشعر العرب في صدر الإسلام برابطة قوية، وبكيان متميز، فالدولة عربية، واللغة عربية، والعرب حملة الإسلام، ولذا توازى مفهوم الإسلام والعروبة بنظر الشعوب الأخرى.

ويستفاد من كتاب عبد العزيز الدوري مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ان هذه الارستقراطية من مالكي الأراضي الكبيرة كانت تدير أملاكها الواسعة بواسطة الوكلاء وتسخير الفلاحين واستغلالهم. وقد سمحت الدولة باستثمار أراضي الخراج بالنيابة عنها لقاء ضرائب معينة، مما أدى إلى مزيد من الاحتكار. وكان الخلفاء يجيزون إقطاع الأراضي التي تقع في أيدي المسلمين، وليس لها من يطالب بها. وتكونت في العهد الأموي طبقات فئوية تسيطر فيها القبائل العربية، يليها الموالي من المسلمين غير العرب، ثم أهل الذمة من غير المسلمين، ثم العبيد.

وفي إطار معالجة علاقة الدين والعائلة، اعتبر الدوري ان تاريخ الإسلام هو تاريخ صراع بين القبيلة و الدين أو القبيلة والقبيلة، وهذا تماماً ما ذهب إليه عالم الاجتماع الأول ابن خلدون، كما تبعه عبد العزيز الدوري الذي نقب أيضاً في التاريخ عن الجذور الاجتماعية والاقتصادية التفصيلية لقيام الوعي القومي العربي، وحسب منهج تحليلي نقدي. وبذلك أرسى قواعد الفكرة العربية، فمثل جانباً عاماً من جوانب النهضة الفكرية في سائر الوطن العربي من مشرقه إلى مغربه، كما من جنوبه إلى شماله، بكشفه صيرورة التاريخ في تكون المجتمع المتطور بتطور الأحداث والتحديات.

وبين نشاطاته العلمية والفكرية تأسيس (كلية الآداب والعلوم) في جامعة بغداد، كما كان له اتصالاته الوثيقة بالحضارة الغربية، وقد تعرفت إليه عندما كان أستاذاً زائراً في الجامعة الأميركية في بيروت بين عامي ١٩٦٨-١٩٦٩. ومن خلال هذه النشاطات وتوجهاته العقائدية اعتبر انه اظهر مرونة بعيدة عن العصبية والمفاهيم الضيقة التي نادراً ما يتحرر منها الحزبيون. ولذلك اعتاد ان يدرس الظواهر التاريخية بروح التفهم والاعتدال واتساع آفاقه ومواقفه. فتأتي رؤيته جديدة تحليلية بعيدة عن الفكر التقليدي السلفي.

كتاب عبد العزيز الدوري شهادات
اصدار مركز دراسات الوحدة العربية 2009

عراقيون
من زمن التوهج

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم

مدير التحرير: علي حسين
التصميم: نصير سليم
الغلاف برؤية: علاء كاظم
التصحيح اللغوي: عبد العباس الأمين

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

عبد العزيز الدوري
ذاكرة التاريخ

عبد العزيز الدوري علم من أعلام التاريخ الإسلامي، وصاحب مدرسة تتميز بالدقة والعمق وسعة الموضوع، والاهم من ذلك هو تركيزه في دراساته على "العوامل الاقتصادية" في فهم حركة التاريخ والمجتمع.

ولد في بغداد سنة ١٩٠٨، وبعد أن أكمل دراسته الثانوية، حصل على بعثة علمية في المملكة المتحدة، فسافر إلى لندن ونال شهادة البكالوريوس من جامعتها سنة ١٩٤٠. واستمر في دراسته وحصل على شهادة الدكتوراه سنة ١٩٤٢، ولما عاد إلى بغداد عين مدرسا للتاريخ الإسلامي في دار المعلمين العالية "كلية التربية حاليا" في بغداد. وقد بقي فيها حتى رقي إلى مرتبة أستاذ

ولم تقتصر جهود الدكتور الدوري العلمية على بلاده، العراق، إنما عمل أستاذا زائرا في جامعة لندن بين سنتي ١٩٥٥ - ١٩٥٦ وأستاذا زائرا في الجامعة الاميركية في بيروت ١٩٥٩ -١٩٦٠ واستقر أخيرا أستاذا للتاريخ في الجامعة الأردنية بعمان.

للدكتور الدوري مؤلفات عديدة طبع الكثير منها طبعات كثيرة منها:

العصر العباسي الأول "بغداد١٩٤٣"

دراسات في العصور العباسية المتأخرة "بغداد ١٩٤٥" مقدمة في تاريخ صدر الإسلام "بغداد١٩٥٠"

تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري "بغداد ١٩٤٨" النظم الإسلامية "بغداد ١٩٥٠" نشأة علم التاريخ عند العرب "طبعة جديدة ٢٠٠٥".

وكلف من قبل منظمة التربية والعلوم والثقافة "اليونسكو" لتحرير مشروع كتاب عام يتناول "تاريخ الامة العربية" والمشروع لم يستكمل بعد.

يعتمد منهج الدوري في تدوين التاريخ على الرجوع إلى المصادر الأصلية ومحاكمتها محاكمة منطقية، واستخلاص الحقائق التاريخية منها. لذلك اتسمت كتاباته بالدقة والعمق

وقد اهتم بالتاريخ الاقتصادي منذ بواكير حياته العملية وهو يرى بان موضوع التاريخ، موضوع حي، ولذلك ينتظر أن تختلف الآراء حول مفهومه، وأسلوب كتابته وتفسيره، فضلا عن انه موضوع يتصل بصورة وثيقة بالاتجاهات الفكرية والتطورات العامة، فيتأثر بها وقد يكون له أثره في بعضها

ويؤكد بان ثمة صلة بين المؤرخ وحقائق التاريخ، فالمؤرخ دون حقائق لا جذور له والحقائق دون مؤرخ مجردة من الحياة والمعنى.

ويقول الدكتور الدوري ان المؤرخين العرب القدامى قدموا تفاسير عديدة للتاريخ العربي وللتاريخ البشري كله، فهناك من رأى بان التاريخ تعبير عن "المشيئة الإلهية" المتمثلة بتوالي الرسالات. وهناك من قال ان التاريخ تعبير عن دور النخبة.

وفسر آخرون التاريخ تفسيرا أخلاقيا، وأخيرا جاء عبد الرحمن بن خلدون في القرن الرابع عشر الميلادي ليفسر التاريخ تفسيرا حضاريا اجتماعيا.

ويضيف الدوري الى ذك قوله ان "التفسير الاقتصادي" لا يعني بالضرورة "التفسير المادي.

وتمتع الدوري بمكانة متميزة، حتى انه لقب بـ"شيخ المؤرخين العرب

كما نال الكثير من التكريم، وقد قال عنه المؤرخ البريطاني والمتخصص بتاريخ الشرق الأوسط، برنارد لويس "انه أي الدوري أصبح حجة في موضوعه.. بل هو نفسه قد غدا وثيقة تاريخية.

لم يكن الدكتور الدوري، وما يزال، بعيدا عن النشاطات الثقافية والسياسية والفكرية العربية، بل كان يشارك فيها باحثا ومناقشا ومحاورا وقد عرف عنه انه لايتعصب لرأي.

لقد كان الدوري في كل كتاباته يؤكد ان التاريخ كل متصل مترابط، يكون سلسلة حلقات يؤدي بعضها إلى بعض.. أما الحاضر فهو نتاج سيره التاريخي وبداية طريقه إلى المستقبل، ولذا فلا انقطاع في التاريخ ولا ظاهرة تبدو فيه دون جذور وتمهيد. كما أن الاتصال في تاريخ الشعوب لايعني ان التاريخ حركة رتيبة، أو أن الشعوب سارت بالخطوات نفسها خلال تاريخها، بل أن فيها فترات تزخر بالحيوية والتوثب وأخرى تتصف بالحركة التدريجية والتطور الهادئ.